

العلامة السيد محمد تقي المدرسي

السلامة: ثورة أفصائية

السيد محمد تقي المدرسي

الإسلام: نعمة أفصحية

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

اسم الكتاب : الاسلام ثورة اقتصادية
المؤلف : العلامة السيد محمد تقي المدرسي
الناشر : المركز الثقافي الاسلامي
عدد النسخ : ٥٠٠٠ نسخة
الطبعة : الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م
الثمان : ١٥ تومان

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب والمؤلف



إن حقيقة كبيرة واحدة بقيت بعيدة عن « وعي » الأمة الإسلامية وكانت الجراثيمة الخبيثة لكل مآسيها الراهنة .

تلك الحقيقة هي ان العالم الذي يحيط بها - عالم مادي تلعب فيه الثروة دوراً رئيسياً .

وبالرغم من ان ثلث « النقد العالمي » سيكون من نصيب الأمة الإسلامية في بداية العقد الثمانين .

وبالرغم من ان « الكتلة الإقتصادية الإسلامية » لو قدر لها ان تتحقق ستكون أكبر وأغنى كتلة في العالم .

وستلعب دوراً بارزاً في رسم خريطة العالم السياسية والاقتصادية .

وستصبح مآسينا الراهنة آنئذ أحداث تاريخية يقرؤها أبنائنا بدعشة - وربما بسخرية !!

بالرغم من كل ذلك . فان « التنمية الاقتصادية » لا زالت
تقع في مؤخرة « تطلعاتنا » الحضارية التي قد نتحدث عنها -
ولكن قليلاً ما نعمل لها يجد ! أو نفكر لها بعقل أو نخطط
لها بروية .

كيف ان العالم اليوم أصبح « هيكلاً إقتصادياً » وكيف أن
عوامل التاريخ انسحبت من الميدان لتقدم مواقعها للعامل
الإقتصادي فقط وكيف يجب أن نعمل في هذا العالم وبين النظريات
المطروحة أمامنا في موضوع « التنمية الاقتصادية » ما هي النظرية
الأوفق بنا والانسب لقيمنا ومبادئنا من ناحية ولا مبادئنا
ومواردنا من ناحية ثانية .

وأخيراً ما هي النظرية الثالثة التي تبحث عنها الدول النامية
عموماً والدول الإسلامية بوجه خاص والتي تقع في الوسط بين
الاشتراكية والرأسمالية .

وما هي مناهجها - وبرامجها وخيراتها وصعوباتها .

هذه الاسئلة وعشرات أمثالها - تشكل اطار الحقيقة التي
تجاهلتها الامة الإسلامية أو لا أقل لم تستوعبها بعمق .

وهي بالضبط موضوع هذا الكتاب الذي يعتبر أول كتاب
من نوعه تناول موضوع التنمية الاقتصادية بالطريقة الإسلامية
المناسبة مع واقع الأمة - وظروفها الراهنة .

والمؤلف :

هو سماحة العلامة الحجة السيد محمد تقي المدرسي ، صاحب أكثر من ١٦ كتاباً ودراسة موضوعية في مختلف الشؤون الفكرية ، والإسلامية ..

والعلامة المدرسي في الحقيقة ، أغنى من أن يعرف ، فهو اليوم أحد المفكرين الاسلاميين البارزين الذين طلعوا بأفكار اسلامية ناضجة جداً في التغيير والاصلاح والنهوض بالامة .

والكتاب الحاضر : هو أحد تلكم الافكار القيمة التي يطرحها على المجتمع ... والذي يثبت سماحته من خلالها : أن نهوض الأمة الإسلامية الاقتصادي ، لا يمكن أن يتم بالوجه الأكمل ، إلا إذا مر عبر الثقافة السليمة ، والتي لا تتوفر إلا بالاسلام وفي الاسلام.

لماذا هذا الكتاب ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

- الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله المعصومين .

لعل السمة البارزة للعصر الذي نعيشه هي المادية المتطرفة العارية التي نبذت عن نفسها كل الأقنعة الايديولوجية ، وظهرت بلونها الطبيعي انذني هو لون - المال - الذي تعبده وتخضع لتوجيهه .

لقد ماعت كل الشعارات وبرز شعار واحد هو الحصول على أكبر قدر ممكن من المال .

فبعد الهدايا الأمريكية « لعملاقي » الشرق :الصين والروس !
وبعد استجابة الأخيرين لشروط أمريكا تحت بريق الدولار الأزرق !

سقط القناع الايديولوجي الذي تقمصته الدول الاشتراكية

وتبين ان كل الصيد كان في جلد الفدي ، وان تلك الشعارات
تكن سوى بعض الأسلحة المستخدمة في الحرب الاقتصادية وبعد
انتهائها - انتهى كل شيء !

وذلك يدل على مدى طغيان المادية على شعوب الأرض وفي ذات
الوقت على مدى أهمية التنمية الاقتصادية لكل شعب أراد
«البقاء» حياً يتنفس في هذا الجو المتسمم بغازات المادية الخائقة.

لا مجال للنظريات :

في هذا العالم هل يمكن للأمة الإسلامية أن تعيش التخلف
والنقص ؟ فتصبح طعمة سائغة لعمالقة العالم الأحمر والبيض والصففر.

أم ان عليها أن توظف كل امكاناتها في سبيل التقدم المادي
الذي يجعلها في مصاف عمالقة الأرض أو متقدمة عليهم ؟

الاجابة النظرية على هذا السؤال بسيطة جداً ، ولكن لم يبق
اليوم محل للنظريات ..

علينا أن نجيب عملياً على هذا السؤال الذي يترجم تحدي
العالم لنا بكل عنف وإصرار .

علينا ان نستنبط الخطط المدروسة من واقعنا الديني والتاريخي
والجغرافي وأخيراً الاقتصادي .

والسؤال لماذا من واقعنا وليس من أي مكان آخر ؟

لأن الثوب الذي خيط على قد الآخرين، إما أن يصبح عليك ضيقاً أو فضفاضاً وبالتالي لا تستريح فيه أبداً .

ان الأنظمة الغربية صيغت لتعالج الواقع الغربي بينما صيغت أو عدلت الانظمة الشرقية لتلائم ظروف الشرق وإذا حولناها إلى أنفسنا تهنا فيها .. كما تاهت قبلنا أمم كثيرة في الارض أرادت أن تقلد مشية الآخرين فسقطت جانباً .

ونحن إذ ندعو إلى مراجعة واقعنا الديني أو التاريخي لا ندعو إلى تطبيق كل التفاصيل التي عاشتها أمتنا قديماً إذ أن ذلك أيضاً نوع من التقليد الاعمى .

انما ندعو إلى استنباط الحلول الصحيحة من مبادئنا الدينية التي لا تتطور لأنها مبادئ عامة ومطلقة وموصى بها من قبل الله العليم .

ثم الاهتمام بضوء التجارب التطبيقية لهذه المبادئ دون التقليد لها .

ولكن هل فعلنا نحن مثل ذلك ؟

نجيب بأسف شديد : لا والدليل البسيط على ذلك :

افتقار المكتبة الإسلامية إلى دراسات تعالج التنمية الاقتصادية المناسبة لواقعنا الحضاري بالرغم من توفر نوعين من الكتب

الاقتصادية فيها نوع يعالج الاقتصاد الإسلامي من نواح أخرى « توزيع الثروات مثلاً » ونوع يبحث عن التنمية الاقتصادية ، على طريقة الآخرين « الشيوعية – أو الرأسمالية » .

ولافتقار المكتبة الإسلامية إلى مثل هذه الدراسات زعم الكثيرون وربما يكونون من المفكرين الإسلاميين

زعموا أن الإسلام – فقير إلى « مناهج في التنمية » بينما الإسلام – كما سيلاحظ خلال دراستنا هذه – أيسر المناهج وأسرعها انجازاً للتنمية من النظم المادية لان الاسلام يثير جميع الدوافع الإنسانية – العاطفية والعقلية والروحية – ويوظفها في اشاعة الرخاء، كما ويشرع للحياة الاجتماعية نظاماً من شأنها أن تيسر عملية النمو الاقتصادي ويسن للحياة النفسية مناهج تربوية من شأنها اذابة العقد النفسية والصفات الرذيلة التي تقف عقبة في طريق العمل الإيجابي البناء .

بالاضافة إلى كل ذلك يمنح الإسلام الكرامة التامة للإنسان حتى وهو في حالة البناء الاقتصادي فلا يسلب الحريات كما لا يجيز عبادة الشهوات . بينما يتورط فيهما كل من الشيوعية والرأسمالية بحجة أن ظروف البناء تفرض سلب الكرامة البشرية (سواء بنهب حرياته أو بعبادة شهواته) لأنهم كما يقولون ظروف استثنائية لا نستطيع أن نهتم فيها بغير البناء الاقتصادي .

بينما الإسلام يقول أن الوسيلة البنائية يجب أن تتناسب مع

الأهداف النهائية والهدف من البناء اشاعة الرخاء وتثبيت الكرامة .

فلا بد أن يتحقق هذا الهدف بوسيلة تتناسب معه أي بوسيلة لا تقتل الرخاء أو تسلب الكرامة .

ضياع الاعلام للمنهج الاسلامي :

والسؤال المطروح في الساحة هو :

إذا كانت مناهج الإسلام في التنمية أيسر وأسرع انجازاً فلماذا لم يأخذ بها العالم وهو يبحث عن أفضل وسيلة للتقدم الإقتصادي دون النظر إلى جذورها الفكرية ؟ والجواب أن افتقار المناهج الإسلامية للدراسة العصرية العميقة هو أهم العوامل التي منعت الإنسان من تطبيقها والإنسان لا يبحث اليوم عن مناهج في بطون التاريخ بقدر ما يبادر إلى تطبيق المناهج الأكثر شيوعاً أو الأكثر أنصاراً !

إن الحركة الشيوعية العالمية تبنت الدعاية لمناهج التنمية الاشتراكية واستخدمت في سبيل ذلك كل وسائل الاعلام وحق اليوم حيث تستولي الشيوعية على نصف العالم تقريباً ، تنشر الشيوعية في عام واحد (١٩٧٢ م) (٧٤٦١١ ر) نوعاً من الكتب الاعلامية !

ويحتل لينين المرتبة الأولى بين آلاف المفكرين والسياسيين في نشر مؤلفاته التي طبعت في (٤٨٠) لغة وبمقدار خمسين مليون نسخة خلال عام « ٧٢ » م . بينما لم يفعل المسلمون مقدار ذلك بالنسبة إلى الإسلام أو قادة الإسلام .

فهل يكون تمسك العالم بالشيوعية عجيبياً ؟ !
أو يكون رفض العالم للمناهج الإسلامية مثار سؤال ونحن لم ننشر خلال العام الماضي سوى كتاب واحد بالنسبة إلى ثلاثة آلاف كتاب نشرتها الشيوعية ؟ !

واجب انساني :

كذلك يكون نشر دراسات عن الإسلام والاقتصاد الإسلامي واجباً انسانياً ، يدعو اليه تطلع البشر نحو نظام يحقق التقدم ، والكرامة ، وبسرعة فائقة .

والكتاب الذي بين أيدينا يهدف وضع أولى الخطوات على درب الدراسات العلمية المسهبة التي تتناول موضوع التنمية الاقتصادية في الإسلام والتي نأمل أن تساعد بلادنا على التقدم السريع .
ولكن بما ان الإسلام - دين - خالدهو لا يعطي الإنسان سوى الخطوط العريضة لاطار اقتصادي - متماسك - يتطور محتواه مع الزمن الصاعد - ووفق تطور الظروف - ويدع للاخصائيين من « الفقهاء والاقتصاديين » أمر وضع خطة عملية مفصلة .

فليس من الصحيح مطالبة الإسلام كما يفعل البعض بتفاصيل المناهج ، لأن ذلك من وظيفة الناس أنفسهم حيث يجب عليهم دراسة الظروف المحيطة بهم ثم البحث عما يناسبها من المبادئ والاطارات التي سنها الإسلام الحنيف .

ولذلك فالكتاب هذا يبين بعض المبادئ والشرائع الإسلامية في التنمية دون أن يدخل في تفاصيل الواقع الاقتصادي الذي تعيشه الأمة لأن ذلك من اختصاص الدراسات المفصلة إلا أن ذلك لا ينافي أن نستشهد بنتائج تلك الدراسات للتدليل على صحة نظرية أو لتوضيحها إن كانت معقدة !

وبالله كل الأمل وفيه كل الرجاء .

تقي المدرسي

الكويت ٩٣/١/١٥

في مواجهة الثورة الثالثة

ما هو حجم التخلف ؟

قال أحدهم للآخر : قرأت في طالع الدول الإسلامية انها تستولي على العالم كله في عام الفين بعد الميلاد فاجابه الثاني نعم ولكن قرأت في طالع شعوب العالم ذلك اليوم انهم قد هجروا الأرض إلى المريخ .

ان هذا الحوار المرح هو بعض ما يتنفس عنه المسلمون اليوم عن همومهم المستقبلية الكبيرة ، فبالرغم من ضرورة قيامهم بثورة اقتصادية ليتم اللحاق بالعالم المتقدم ، يبدو ان هذه الثورة لا تزال بعيدة المنال وذلك لأسباب وجيهة هي للمثال وليس الحصر .

١ - ان المسلمين متخلفون ثلاثة أجيال حضارية عن العالم في الجيل الأول : تقدم العالم في حقل الثقافة ، ذلك لأن المعروف

تاريخياً ان النهضة العلمية سبقت النهضة الصناعية بقرنين كاملين وبالضبط - تفتح العقل الأوربي - في العقد الثالث من القرن السادس عشر وتوسع في الصناعة في العقد الستين من القرن الثامن عشر .

والآن تمضي أربعة قرون من الزمن على الثورة العلمية ولا تزال ثقافتنا تعاني رواسب تخلفية عميقة .

وهكذا سبقنا العالم في الجيل الأول ، وفي الجيل الثاني تقدم العالم المتحضر - صناعياً - حيث استثمر طاقة العلم الخلاق في حقل الصناعة ، فكهرب الانتاج ونظم السوق ، واتقن فن الاعلام ، بينما بقينا نعاني من «فرقة» العلم عن الصناعة ، و «عقم» المعرفة عن الانتاج .

صحيح اننا قد نستخدم اليوم أحدث المنتوجات العلمية ، وصحيح أيضاً أننا قد نستورد مصنعاً تشغله أيدينا وأدمغتنا وننتج كميات كبيرة من المواد المصنوعة « محلياً » ، ولكن كل ذلك يتم تقليدياً وعبر قنوات خاصة ، يحفرها إمتداد الحضارة الأوروبية بمعنى اننا لم نزل نمثل دور المقلد « الممتاز » في ذلك الجزء الذي نستورده من الحضارة ، فلاندخل تحسينات كافية عليه حتى يكون من « صنعنا » وتتفاعل فيه «ثقافتنا» وتناسب مع واقع أوضاعنا .

في مواجهة الثورة الثالثة :

والعالم اليوم يعيش الجيل الاقتصادي الثالث حيث يدخل مرحلة ما يسمى بـ (الثورة الثالثة) التي بدأت عام ١٩٥٠ وتوجز في ثلاث نقاط :

● استخدام افضل منجزات العلم المتقدم .

● الاستغناء عن ادارة الإنسان بادارة الجهاز ذاته معتمداً على العقول الألكترونية الجبارة بما يسمى التشغيل الآلي ..
«Antomatig» .

● استخدام الذرة في الصناعة .

وبتخلفنا عن هذه الثورة ثلاثة أجيال . وتقدم العالم ثلاثة أجيال كاملة - افلا يدعونا - هذا الوضع إلى الحسرة وربما إلى اليأس ؟

تنافس أم عداء :

٢ - والعالم المتقدم ينظر بعين مريبة ، وخائفة إلى العالم المتخلف ويخشى من قيامه بحركة سريعة يحقق بها تقدمه المنشود .

لذلك تضع الدول المتقدمة مختلف العقبات في طريق الدول

النامية بالرغم من انها تدعي مساعدتها في النهوض ، والسؤال عما إذا كان ما تفعله بنا الدول المسماة بالمتحضرة بدافع التنافس أم العداوة ؟

طريق النهضة :

٣ - العالم الإسلامي لا يزال مختلفاً على نفسه في كيفية النهوض مما يعكس جهله أو تجاهله لمتطلبات النهوض والصفة العملية التي يجب ان تحتوي هذه المتطلبات وتحولها إلى خطط مدروسة ، وليس جهل العالم الإسلامي أو تجاهله بكيفية نهوضه آتياً من غموض في الأمر ، بقدر ما هو ناتج من تعقد نفسي يعيشه المسلمون نتيجة التخلف والقلق واليأس ، وتساعد التيارات القوية الآتية من الشرق والغرب « واليسار واليمين » على هذا الدوار ، حيث يطرحون على الساحة مختلف الشعارات الفارغة ، والآن لو طرحت السؤال التالي على الف انسان مسلم وهو : كيف ننهض ؟

لاستقبلك الف وخمسمائة اجابة .. لأن بعضهم يتبرع لك بأكثر من جواب لجهله بالحقيقة الضائعة في سوق الشعارات الرخيصة .

من أين نبدأ .. ؟

بعض يقول .. لكي ننهض لا بد أن نكنس أولاً واقعنا

الحضاري كله ! ونبدأ الحياة من جديد كأننا أمة بلا حضارة،
ولا تاريخ ، ولا قيم ، وأخيراً بلا مبادئ وأيضاً بلا
« الله » !

فلقد رفع الطلبة المصريون في اضراباتهم الأخيرة شعاراً
عكس هذه الفكرة المتطرفة بالقول : أين الله ..؟ أرونا شخصه
أو ابحثوا لنا عن « إله جديد » !

سبحان الله .. يبالغ اليأس بالإنسان إلى حالة التعري الكامل
عن قيمه المقدسة ، كما حصل لهؤلاء ولكن إلى صفهم يوجد فريق
يزعم أن التمسك بكل ما في واقعنا التليد هو الأسلوب الوحيد
للنهضة ، وبين هذين المتطرفين يقف الآخرون في « سلم طويل »
كل على درجة ، ولكن الجميع حائرون ويطرحون ذات السؤال
في حقل الإقتصاد .

هل نبدأ التقدم من حيث بدأوا؟ أي من نقطة « الصفر »
أم نقلدهم في المراحل التي مضت حتى ننتهي إلى حيث يقف
العالم اليوم ؟!

وتتنوع الإجابات ولكل اجابة أنصار وحجج و ..
و « شعارات » .

حرق المراحل :

يقول البعض أن اليابان دخلت حقل التقنية عام ١٩١٤ أي بعد أربعة قرون من النهضة العلمية في أوروبا وأصبحت اليوم من أكبر الدول الصناعية ولو كانت اليابان تبدأ من نقطة الصفر وتدرج في تقدمها - اذن - كان عليها أن تنتظر قرنين كاملين حتى تنهي مرحلة النهضة العلمية فقط .

بينما يقول الآخر وهو يرى ضرورة الانطلاق من نقطة « الصفر » :

ان اليابان لم تقصر المسافة إنما أسرع فيها لأنها كانت قد عبت من قبل الأوروبيين ومشكلتنا نحن بالشرق اننا نحاول حرق المراحل الضرورية « فنحترق » بأنفسنا يقول - كرستير - في كتابه (نظرية في التطور الإقتصادي) والذي ينقل عنه الدكتور صلاح الدين نامق بالقول : « وتطلع (أي الشرق) وفي سرعة مدهشة إلى أسلوب التكنولوجيا في التنمية التي حققت نجاحاً في الغرب الصناعي ؟ لعله يحقق نفس القدر من النجاح في الدول النامية ، متناسياً ان هذا الغرب الصناعي قد أدخل التكنولوجيا الحديثة مع تطورات مرحلية ذاتية بدأت بأول ثورة صناعية غربية في نهاية القرن الثامن عشر - سارت جنباً إلى جنب مع تقديم ملموس في العلوم الأساسية التطبيقية وانتهت إلى استخدامات متتالية للمعلومات المتوافرة في المجالات

التكنولوجية التطبيقية على أسس صناعية تجارية ساعدت بدورها بطريق مباشر أو غير مباشر على انماء صناعات أخرى فنتج عن ذلك تقدم في جميع الصناعات .

من أين نبدا ؟ ... من التفهم

والواقع أن الاجابتين غير صحيحتين وإنما لهذا السؤال الخطير اجابة بسيطة هي ضرورة الابتداء من التفهم لا من الصفر ولا من حيث انتهى العالم المتحضر ولكن كيف يكون التفهم منطلقاً نحو التقدم .

ان الرؤية السليمة والواضحة إلى أنفسنا وإلى الواقع المحيط بنا هي الخطوة الأولى التي تقودنا إلى الحضارة الحقيقية التي هي معاناة التقدم وممارسة منجزاته دون تقليد الآخرين فيها أو الاستغناء عنهم فيها .

بينما افتقار الرؤية يجعلنا ندور حول أنفسنا في حلقات مفرغة قد ترتبط بسياسات دول أخرى ، فنمسي مجرد حلقة في اصبع الآخرين ، أو يجعلنا سلبين نقبع في جزيرة الجهل والظلام وأيضاً في الأحلام الطفولية .

كل ذلك لأن الحضارة هدف مشترك لجميع الأمم ولكن كل أمة تملك وسيلة معينة لبلوغها فإذا أرادت هذه الأمة المتحضر بوسيلة غيرها كان مثلها كالغراب الذي أراد أن يتعلم مشية -

الطاووس - فنسي مشية نفسه أيضاً إذ أن هذه الأمة لا تستخدم الوسيلة التي تملكها ولا تجد الوسيلة التي تريد أن تستخدمها .

فالشعب الصيني مشى في طريق الحضارة بوسيلته الخاصة وهي الاعتماد على الكثافة السكانية فاستطاع تحقيق أهدافه وأمريكا اعتمدت على المهاجرين والرساميل الأجنبية وأيضاً المعادن الثرية فيها فحققت الحضارة بهذه الوسيلة .

فلو كان الصين يقلد أمريكا في الحضارة لما استطاع أن يفجر القنبلة الذرية .. إلا بعد ألفي عام لماذا لأن الصين بكثافة سكانه لم يكن يستطيع استقبال المزيد من المهاجرين وبقلة موارده وظلم المستعمرين له لم يستطع استثمار الرساميل الأجنبية وبضعف امكاناته الفنية لم يكن يقدر على جعل الثروات المعدنية دعامة تقدمه .

والآن هل تستطيع أندونيسيا تقليد الصين في وسيلة التقدم؟ كلا .. لأن أندونيسيا هي الأخرى ، تتمتع بظروف مختلفة فالقيم الدينية الراسخة فيها لا تسمح بإعادة تجربة الصين بكل تفاصيلها كذلك سائر الدول الاسلامية لا تستطيع محاكاة الغرب أو الشرق في وسائلهم الحضارية لاختلاف بنيتهم الذاتية والثقافية وأيضاً الاقتصادية .

إذن لا بد أن نحصل أولاً على رؤية سليمة وواضحة لأنفسنا ولعالمنا المحيط بنا ثم نبدأ (بابتكار وسيلة مناسبة لنا نستعين بها على ثورة تكنولوجية من نوع جديد ويشترط أن تتوافر المواصفات التالية في هذه الوسيلة :

١ - يجب أن تتفق تماماً مع قيمنا ومبادئنا ومقومات كياننا التاريخية .

٢ - وأن تصاغ من امكانياتنا الذاتية المتوافرة

ولكن كيف ذلك ؟

التضحية بالقيم = جريمة

كثير من الناس يضحون بقيمهم في سبيل مصالحهم ولكن حينما يصلون إلى عتبة المصالح تنتظرهم مفاجئة عريضة ، هي انهم لم يعودوا (هم) ولا بقيت مصالحهم (مصلحتهم) يجدون أنفسهم غرباء عن أنفسهم ويجدون أنهم أصبحوا يخدمون مصالح الآخرين !

ومن هنا كانت التضحية بالقيم جريمة .. حتى ولو كاذت في سبيل المصالح – بل وأكبر من جريمة لأنها لا تقتل هوية الإنسان فقط بل تمسخ الإنسان إلى مصالح !.

ولكي نبقي متمسكين بقيمنا ونجن نتابع خطوات التنمية لا بد أن نعرف طبيعة هذه القيم فما هي ؟

تتلخص هذه القيم في كلمة : لا بد أن نجعل التنمية في خدمة الإنسان دون العكس ! كما تفعل النظم المادية .

وبتفصيل :

الحياة التي يصوغها الإسلام (وهو يمثل قيم الحياة) حياة هادئة بصيرة ، تنطلق من الإيمان والنشاط وترسو على شاطئ الرفاه والكرامة .

بينما الحياة التي تريدها الأنظمة المادية حياة بلا غاية محدودة وتسودها الفوضى والتوتر والغموض .

فالإسلام يريد للانسان أن يتحرك وأن ينتج ، وأن يقتني ولكن يتحرك وفق خطة مرسومة ، وينتج سلماً معينة . ويقتني أشياء (مفيدة) ، وبالتالي يريد أن يوظف كل تلك الحركة والانتاج والاقتناء في سبيل الوصول إلى شيء معين ، هي السعادة الكريمة - ونقول سعادة لكي لا يلفه عذاب ، ونقول « كرامة » لكي يبقى « الإنسان » فلا تذبح إنسانيته فداءً لطعامه ومسكنه وراحة جسمه !

يقول الله سبحانه :

«كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده» (٦/١٤١) .

«كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان» (٦/١٤٢) .

إن الأكل يجب أن يكون مع اتيان حقه ، فذلك هو الرفاه ، وهذه هي الكرامة ، ذلك جانب من الإنسان - وهذا جانب يجب أن يتحدا - حتى يكملا الهدف الرئيسي من حياة الإنسان .

أما ذلك الأكل الذي - لا يحدث شيئاً ويكون طاقة للفساد في الأرض واتباع خطوات الشيطان فإنه محذوف من قاموس الإسلام .

وهنا يريد الإسلام توظيف التنمية الإقتصادية في خدمة الأهداف الكبيرة التي من أجلها خلق الإنسان . وهذا يفرق أسلوب التنمية عند الإسلام - عن كل المناهج الوضعية بعدة فروق أساسية :

١- الإسلام يرفض بشدة - إكراه شعبٍ على التقدم تحت ستار التحضير بالعنف ، هذا الستار الذي أصبح شعاراً للاستعمار خلال القرن التاسع عشر - وذاقت الشعوب المتخلفة من ورائه ألواناً من العذاب .

٢- والإسلام يمنع كذلك الدكتاتورية من أجل التنمية التي تحت شعارها : تقوم الحكومات الاشتراكية - بمصادرة الحريات - وكبت التطلعات وتحطيم القيم المقدسة .

إن الحرية أشرف عند الإنسان من كل شيء ، ولا يجوز التنازل عنها رغبة في تقدم مادي - مهما كانت الظروف - وشعار الإسلام في ذلك « لا تكن عبداً لغيرك وقد جعلك الله حراً » (١) .

(١) حديث مأثور عن الإمام علي عليه السلام .

٣- ويقف الإسلام ضد الإثراء على حساب الآخرين لأنه تضحية غير مشرفة بالكرامة في سبيل الشهوات . إن القرآن يقول عن الثروة الآتية من الغل :

« وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأت ، بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٣/١٦١) .

ويقول عن الثروة المحتطبة بالظلم :

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » (٤/١٠) .

ويقول النبي (ص) عن الغش :

« ليس منا من غشنا »

وليس هذه وصايا روحية ينبذها الإسلام إلى المجتمع - فاما يعمل بها أو يعزب عنها صفحاً - كلا انها نظم مدروسة يسنها الدين ويشرع لها ضمانات تنفيذية مناسبة - وأبرزها - وصاية المجتمع المسلم على تطبيقها بكل عزم واصرار .

فالمجتمع المسلم الممثل بالدول الاسلامية مسؤولٌ عن تطبيق هذه الوصايا المقدسة - ومنع كل عمليات السرقة والابتزاز ظاهرة وباطنة .. حتى لا تهبط الحياة الاجتماعية إلى حضيض الطبقات المتناحرة - طبقة تظلم وتغل وتعش وتبذر - وأخرى تبقى

تجتز الحشرات ليس لها من أمرها صغيراً أو كبير . كما تردت إلى مثل هذا الوضع المجتمعات الاقطاعية والاحتكارية الرأسمالية .

٤- والاسلام يحرم الثروة التي تجمع بالطرق الملتوية التي تضر بمصالح الآخرين ويضع لذلك مبدءاً عاماً يقول « لا ضرر ، ولا ضرار » ، في الإسلام .

إن الأساليب الماكرة المستخدمة في ظل النظم المادية التي تسبب الإضرار بالفقراء والكادحين تحت أقنعة شرعية - لا وجود لمثلها في النظام الاسلامي لأن الإسلام يدعو إلى روح العدالة وليس إلى قشورها الفارغة . الاسلام يوجد في المجتمع جهاز رصد أمين وبصير ويكلفه بمراقبة الأوضاع الشاذة وتصحيحها بسرعة .

ولقد كان هذا الجهاز (وهو المجتمع الاسلامي ذاته) وراء قدرة الاسلام - على تحقيق التقدم والرفاه للشعوب دون التوسل بالعنف والمكر والوسائل غير الشريفة .

ومقارنة بسيطة بين تقدم المسلمين الاقتصادي . الذي تم في ظل الاسلام وبين التقدم الذي أحرزه النظام الاشتراكي أو الرأسمالي للشرق والغرب . تكشف لنا الكثير الكثير .

تكشف لنا كيف أن الأمة الاسلامية بلغت التقدم الاقتصادي

والسياسي . دون ممارسة أي نوع من الكبت والارهاب
ومصادرة الحقوق الانسانية ودون التوسل بالاستعمار والحرب
والغدر ..

وبالتالي كيف أمكن للاسلام تحقيق تطلعات تلك الأمة بدون
تلك المضاعفات الخطيرة التي سببتها الأنظمة الشرقية والغربية في
ظروف بناء اقتصادها ..

بينما الغرب - استغل تفوقه العسكري في نشر الارهاب
فوق ربوع الأرض - وقهر الشعوب - بالعنف والمكر .. وامتص
دمائها حتى الشمالة .

لقد كان الهدف المباشر للاستعمار هو تحطيم اقتصاد البلد -
فور تمكنه منه .. لكي يفسح المجال أمام المنتوجات الغربية
بالإنتشار .

فمثلاً : في الجزائر - ماذا فعل الاستعمار الغربي .. بالاقتصاد
الوطني ؟.

تعالوا نستمع إلى (بوجو) الحاكم العام للجزائر عام
(١٨٤١ - ١٨٤٧) يقول :

« ليس هناك ما يمكن الاستيلاء عليه في أفريقيا إلا مصلحة
واحدة هي المصلحة الزراعية . وقد فكرت في ذلك طويلاً عند

اليقظة وعند الرقاد ولم أستطع ان اكتشف طريقة أخرى للقضاء على البلاد إلا بالقضاء على تلك المصلحة ، (١) .

وعن مدغشقر : يقول جاليني (الحاكم الفرنسي العام للمنطقة) « ليس هناك ما يمنع ان تحمل الرؤساء بأوامر منا على اتخاذ ملابسنا وعاداتنا وان نحث النساء على التخلص من ملابسهن الفضفاضة لكي يرتدين ملابس واردة من فرنسا » (٢) .

إن الرأسمال الغربي الذي فجر الثورة الاقتصادية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر جاء عَبْرَ جسر من المآسي - حتى وصل إلى البلاد الأوروبية . (والأمريكية) .

لقد كانت المستعمرات الآسيوية والأفريقية تعني أشياء كثيرة عند أوربا - فهي السوق العريقة لمنتجاتهم المتزايدة وهي المورد البشري الفخم - للأيادي العاملة وهي روافد المواد الأولية - التي كاذت تنهب علانية وسراً !

دعنا نستمع قليلاً إلى التاريخ ليُدلي علينا ببعض الشهادات على هذه الحقائق :

كان المستعمرون يستخرون الأيادي بعنف وبدون أي أجر

(٢٠١) تشريع جثة الاستعمار ص ٢٦٩ .

وفي شروط أقل ما يُقال فيها إنها (ما ساوية) .

« في تشاد طلبت البعثة الفرنسية حاملين (للسخرة) ففر كل الرجال الأصحاء إلى الغابات !! ولم يبق إلا الشيوخ والنساء والأطفال فأخرج هؤلاء من أكواخهم وبعد أن أوقفوا في صف واحد فتحت عليهم نيران البنادق حتى سقطوا عن آخرهم وبلغ عدد القتلى (١١١) جثة (شخصاً) »^(١).

هذا عن تسخير الأيادي العاملة في البلاد المستعمرة ذاتها - ولكن هل كانت هذه كل المأساة - كلا - بل كانت تجذب هذه الأيادي - بعنف - إلى بلاد المستعمرين (بالكسر) وفي حافظة التاريخ ألف قصة وقصة عن أنواع العنف القاسية التي كانت تستخدم ضد الأيادي المجلوبة إلى بلاد المستعمرين .

فمثلاً : شن البرتغال حملات ضارية على انجولا في أفريقيا بغرض اسر أكبر عدد ممكن من الأرقاء بصراحة ودون تكتم .

وكان ينقل هؤلاء الأسرى - البؤساء إلى أوروبا بطريقة وحشية . وموغة في الوحشية واللاإنسانية . « كاذت تحشد هذه الجموع في السفن الرأس بالرأس ، والجسم على الجسم بعد أن تغل أيديهم وتوسم أجسامهم (بجديدة محاة) .

(١) المصدر . ص ٢٩٠ .

وكانت قسوة الطريق تؤدي إلى موت عدد كبير منهم قبل الوصول إلى خدمة الأسياد الأوروبيين - حتى بلغت نسبة الوفيات فيهم عام ١٧٤٦/١٧٧٤ إلى ٣٤٪ !!!

وتم كانوا يعاملون بوحشية بالغة - وكثيراً ما كانوا يُحرمون مما ينعم به الحيوان !

وقد تم تهجير مأتي مليون من الأفريقيين فيما بين القرن الخامس إلى منتصف القرن التاسع عشر .

إن استعباد مأتي مليون بشر - بهذه الطريقة الوحشية - لم يكن يهز ضمير رجل واحد في تلك البلاد التي ماتت القيم لديها - وأصبحت التنمية الإقتصادية إلهاً يُعبد من دون الله .

والإسلام حيث يربط التنمية بالقيم ربطاً متيناً يُحصن الإنسان من مثل هذه النتائج السيئة .

وليس الغرب فقط داس القيم الإنسانية في طريقه إلى التنمية - إنما الشرق كان أقسى - وأعنف وأكثر وحشية في ذلك .

كيف ذلك ؟

سُرقت الدولة الشيوعية الأم - (الاتحاد السوفيتي) سُرقت
أكثر احتياطي الذهب من اسبانيا - عند الحرب الأهلية - بين
الوطنيين والشيوعيين . بحجة المحافظة عليها كما نهبت ١١ طناً
من الذهب من إيران .

ولكن هذه السرقة - وأمثالها - لم تكن تشكل سوى
حجر واحد في بناء الرأسمال الروسي والذي اعتمد على العنف
والمكر - في كل مراحل بنائه .

فالسُرقة المنتظمة لموارد الشعوب المقهورة في أوروبا الشرقية
والجمهوريات التركية وفرت على الروس ما كان يحتاج إليه من
الرأسمال المتراكم .

والأيادي كانت جاهزة عند الروس والمشقة كانت بخدمة
الدولة في كل لحظة وقد ابتلعت ملايين من البؤساء الذين قاوموا
أساليب العنف الوحشية .

ورفض هذا النوع من التنمية يأتي في مقدمة الشروط
الإسلامية التي يجعلها إطاراً ضرورياً للتنمية .

ونحن إذ نطالب بالتنمية الإقتصادية على طريقة الإسلام
نجعل تلك المآسي نصب أعيننا ونتخوف من تورط بلادنا
في دركها

عن الإنساف والتنمية

(١)

الثقافة في خدمة التنمية

سبق وان بينا شرطين للخطة الإقتصادية التي يجب أن نتبناها :

١ - أن تكون هذه الخطة متفقة مع قيمنا ومبادئنا .

٢ - وأن تصاغ من امكانياتنا ومواردنا الطبيعية .

والحديث السابق - كان عن توفيق التنمية مع القيم بقي
أن نتحدث عن البند الثاني - وبالضبط عن امكانياتنا التي يمكن
توظيفها في عملية التنمية .

وهذه الإمكانيات تتنوع عادة إلى :

أ - الامكانيات البشرية .

ب - الامكانيات المادية .

وحديثنا الآن حول « الأولى » كيف يمكن أن نستثمرها
في عملية التنمية .

والثقافة هي الوسيلة المباشرة لبناء الإنسان الصالح .
كيف ذلك ؟

الجواب :

لكي نتابع مسيرة التنمية الاقتصادية قدماً إلى الامام ،
ولكي تبقى تطلعاتنا معلقة بقنديل التقدم أمام الآخرين ، واستباقهم
إلى استثمار طاقات الكون .

لكي تكون كذلك ، لا بد أن نبحث عن ثقافة تغيرية
تعطينا الدفوع الحضارية ، وتمدنا بالتطلعات والآمال الزاهرة ..
وبالتالي تساعدنا على تجاوز العقبات التي في الطريق .

ولا يكفي أن نجد هذه الثقافة في كتاب أو مبدأ ، انما
يجب أن نبشها عبر كل الأدمغة ، وننميها باستمرار لتصبح « وعياً
جماهيرياً طافحاً » .

ولكن لماذا نحن بحاجة إلى ثقافة تغيرية ؟ ولماذا يجب أن
ننميها حتى تصبح وعياً جماهيرياً ؟؟

ان العلاقة بين الثقافة والتقدم ، هي علاقة الشجرة ببذورها ،

وأيضاً يجذورها فلا يمكن خلق التقدم بغير الثقافة ولا يستمر بدونها .

دور العامل الانساني

ذلك ..

ان الدراسات العميقة التي ظهرت أخيراً عن الدول المتخلفة دلت على ان العامل الإنساني Human factor هو العامل الحاسم الذي يعين مصير الأمة ، فإذا كان الإنسان متشبهاً بروح خلاقة ، نشطة قامت جميع العوامل الاقتصادية الأخرى بخدمته ، أو بالأحرى استطاع استخدام جميع العوامل في سبيل هدفه . أما إذا كان العكس ، فان ذات العوامل المساعدة تتحول إلى أسباب مباشرة للتأخر والتخلف .

يقول البروفسور « كالدور » : « ان اية دراسة ديناميكية في التطور الاقتصادي ، لا بد أن تؤدي إلى دراسة العوامل السيكولوجية الاجتماعية المحددة للتقدم ، فالمنظم الرأسمالي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو الذي دعم النظام الرأسمالي وقوى شأنه » .

أما في الدول التي لم تمر على النظام الرأسمالي ولا زالت تعاني من الفقر والتخلف الاقطاعي ، فلعل الانماط السلوكية للفلاح العادي هي التي دعمت من النظم الاقتصادية السائدة في هذه

الدول والمناطق .

لكي نوضح دور العامل الإنساني في التنمية ونعرف بالضبط النواحي المختلفة التي يظهر فيها الانسان كعامل اقتصادي ، وبالتالي لكي نستطيع توظيف هذا العامل في بناء اقتصادنا المتخلف .

نبين نواحي تأييد الثقافة للتنمية ونبين كذلك مدى ما يمكن ان يعطينا الاسلام في ذلك من امكانيات .

العامل الحضاري :

أصدفة تتمسك أمة بزمام القيادة العالمية حيناً ، ثم تخور وتترك الزمام لأمة أخرى .. ؟

أم هي سنة الكون التي لن تجد لها تبديلاً ، ان ترتفع أمة إلى سدة الخلافة على الأرض ، حتى تنتهي دورتها الحضارية المرسومة لها - كما ينتهي دور الممثل على خشبة - فهناك تعمل كل الأحداث على ازالتها وتبديلها بأمة أخرى .

وهكذا يفعل بالامة الثانية في حلقة دائرية مستمرة تسمى في علم « الحضارة » بـ (دورة الحضارة) ؟؟

آخر الدراسات التاريخية اثبتت ان دورة الحضارة (نظرية ابن خلدون وكثير من الكتاب الإنسانيين) لا تمثل إلا جانباً من

الحقيقة ، فما هو الجانب الآخر ؟ تقول هذه الدراسات ان هناك عوامل تدعى بـ « عوامل الحضارة » هي التي تسبب انبثاق أمة من الظلام - فترة من الزمن - وهي كثيرة ، ولكن العامل الحاسم فيها هو « الفكرة الحضارية » فهي التي تظهر في أمة فتقوم بدور (المنظم) لمجموعة الأشياء المتراكمة أمام الإنسان ، كما تتراكم المواد الإنشائية أمام المهندس قبل أن يبدأ بالبناء .

دور « الفكرة » في البناء الحضاري :

فالتراب والماء والمعادن وأيضا الأيادي العاملة كلها عناصر البناء الحضاري ، وهي موجودة في كل مكان ولكن لا يتحرك الإنسان باتجاه استخدامها إلا بعد وجود « دافع » نفسي يحدو به إلى هذا الإستخدام ، والفكرة الحضارية تأتي لتكون ذلك - الدافع - الذي يحرك الإنسان فيتحرك كل شيء من حوله باتجاه البناء .

ولكن هذا الإنسان لا يتحرك بدون فكرة - فالفكرة تلعب دور الوسيط الرابط بين الأشياء والإنسان .

لذلك كانت الأمم في محيط يلفه السكون والتخلف والكسل . حتى تلقي السماء فيها صخرة الوحي فتزها من أعماقها وتخلق فيها أمواجاً عاتية لا تزال تتسع وتتسع وتتلحق حتى تشمل العالم . ففي التاريخ القديم كانت الأمة العربية تنام في رحاب السكون

والكسل ، وحولها كل الطاقات الطبيعية تذهب بدداً ولا زالت حتى جاءها الوحي بدين الإسلام .

ففجرت طاقاتهم ووظفتها في البناء والتقدم فكانت الحضارة حيث ساد الرخاء والأمن والبناء . ولم يعد العربي يأكل الدم ، ويتفكه بأوراق الشجر ، ولم يعد يحبل طعم الكثير من الفواكه أو لا يعرف كيف يستخدم طيب الكافور بل يتصوره ملحاً فيجعله في طعامه ..

ذلك لأنه أصبحت لديه « فكرة » أعطته - دافعاً - نحو استثمار طاقات الحياة من حوله ، وتسخيرها من أجل تقدمه .

والفضل في ذلك إلى الوحي فهل ننتظر نحن أيضاً ذلك الوحي ؟... - كلا - .

ان استيراد الفكرة الحضارية ممكن فان الأمة الأوروبية استوردت « الفكرة المسيحية » وتلبست بها وجعلتها وقود تقدمها .

والأمة الأميركية لم تتقدم بالوحي بل برجال صنعتهم الحضارة الأوروبية في تلك القارة المسيحية ، التي أشعلت جذوتها (فكرة الوحي) .

همة العاملين .

ولذلك فبالرغم من توافر المعادن في العالم الجديد امريكا

لم يستطع الهنود المحرورهم السكان « النابتون » من أرض أمريكا أن يصنعوا شيئاً ..

انما المهاجرون الذين حملوا معهم للفكرة والنشاط هم الذين استثمروا معادن أمريكا وجعلوا منها أقوى دولة في العالم . ان الدراسة الاقتصادية الاحصائية التي استشهد بها « بالدوي » في كتابه (التنمية الاقتصادية) تدل على أن التنمية الاقتصادية التي حدثت بالفعل في الولايات المتحدة الامريكية في الفترة ما بين ١٨٧٠ وأوائل القرن العشرين انما ترجع أصلاً ودون أدنى شك إلى زيادة الكمية التي طرأت على رؤوس الاموال الصناعية والزراعية في البلاد وحدث شيء من التقدم في مستويات التعليم في ذلك الوقت إلا ان « مهاميز » الإنتاج كانت دائماً رجالاً مغامرين أشداء آلوا على أنفسهم أن يحصلوا على الثروة التي حرموا منها في بلادهم الاصلية فهاجروا إلى أمريكا وليس لهم من أمل إلا الغنى والثروة فعملوا لها يكد واجتهاد وحققوا في النهاية ما كانوا يصبون اليه .

هكذا تكون - مهاميز - الإنتاج -هم- الرجال المغامرون وليست رؤوس الأموال ولا الموارد الطبيعية ولا حتى التعليم .. والتجربة ذاتها تكررت في بلاد كثيرة من العالم الحديث فاليابان والإتحاد السوفياتي والصين لم يتقدموا إلا بفضل هذه « الفكرة الحضارية » التي ايقظت روحهم الهاجعة وجعلت لهم تطلعاً أسمى من واقعهم .

وهكذا تكون الفكرة: (الثقافة) منطلقاً لمسيرتنا الحضارية .

ولكن كيف نشحن أبنائنا بهذه الفكرة ونربيهم بها ؟
لكي نعرف ذلك بالضبط لا بد ان نعرف كيف يربي الاسلام
الإنسان المثقف الذي يجعل للعمل قيمة أساسية - ثم تتابع
الحديث حول ما يمكن ان نضعه في سبيل ذلك من مناهج .

الاسلام والشخصية العاملة :

يتبع الإسلام خطين تربويين لبناء الشخصية العاملة ، نركز
نحن اهتمامنا بواحد ، ونندع الآخر :

الاول : **خط وقائي** : ويحافظ الدين به على حيوية النفس
واندفاعها ويزرع الثقة والحب في القلب ، ويقتلع جذور اليأس
والقلق منه .. وهذا هو الخط الذي ندعه لأنه لا يمت من قريب
ببحثنا الإقتصادي .

الثاني - **خط تشجيعي** يجعل به الإسلام « للعمل » قيمة
سامية يتطلع اليها المؤمنون ، وانما نركز حديثنا على هذا الخط
لأننا بأمس الحاجة اليه .. فلقد انشطر الدين والدنيا في قلب
« المؤمن » وزعم أن صلاته ونسكه شيء ومحياه ومماته
شيء آخر .

وقال مع من قال في حرب صفين : الصلاة مع علي (ع)

اتم والطعام مع معاوية أדם والوقوف على التل أسلم !!

ولكن ووفقا لسنة الله في خلقه فقد هذا الفريق صلاته وطعامه وسلامته ، لأن طاقات الدين من - صلاة وجهاد - هي التي وفرت الطعام والدسم ، فإذا ذهبت - لم يبق إلا الجوع والخوف - !

والسؤال كيف يجعل الدين من العمل قيمة .. ؟

ويأتي الجواب من الوحي - متمثلاً في النصوص التالية :

« ومنهم من يقول : ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

« القرآن الكريم »

« العبادة سبعون جزء - أفضلها جزء - طلب الحلال » .

« الرسول الأعظم (ص) »

« ليس منا من ترك ديناه لآخرته ، وليس منا من ترك آخرته لديناه » .

« الامام الصادق (ع) »

« ملعون .. ملعون من القى كله على الناس » .

« الرسول الأعظم (ص) »

« ان ظننت ان هذا الأمر - أمر قيام الساعة - كائن في غد ،
فلا تدع طلب الرزق ، وان استطعت الا تكون كلا فافعل »

« الامام الصادق (ع) »

سئل الامام الصادق عن بعض أصحابه ما فعل ؟

قالوا له : اقبل على العبادة وترك التجارة .

فقال : ويحه أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له دعوة
انظروا لا يستجاب له دعوة .. ان قوماً من أصحاب رسول
الله - صلى الله عليه وآله - لما نزلت الآية « ومن يتق الله يجعل
له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ، اغلقوا الأبواب واقبلوا
على العبادة وقالوا - قد كفيينا - فبلغ ذلك النبي (ص) ، فارسل
اليهم ..

فقال :

ما حملكم على ما صنعتم ؟

فقالوا : يا رسول الله تكفل الله لنا بأرزاقنا ، فاقبلنا

على العبادة .

فقال : انه من فعل ذلك لم يستجب له .. عليكم بالطلب .

ولم يكتف قادة الإسلام الروحيون « بالتشجيع القوي » المتواتر على العمل وقيمه السامية . بل راحوا يعطون اتباعهم دروساً عملية في ذلك وفي القصص التالية بعض النماذج من ذلك :

« أوحى الله إلى نبيه داود - كما جاء في حديث الامام علي (ع) - « انك نعم العبد لولا انك تأكل من بيت المال ، ولا تعمل بيدك شيئاً .. فبكى داود أربعين صباحاً ، فأوحى الله إلى الحديد - ان لن لعبدي داود - فألن لداود الحديد - فكان يعمل في كل يوم درعاً ، فيبيعها بالف درهم ، فعمل ثلثائة وستين درعاً وباعها بثلثائة وستين ألفاً واستغنى عن بيت المال » .

مما سبق يتبين بوضوح مقدار - الأهمية - التي أعطاها الإسلام للعمل والعاملين .

والقصة التاريخية المتخذة من حياة داود لا تشجع العامل البسيط على العمل فقط انما تفرض العمل على القادة الروحيين والسياسيين أيضاً .

وهذا مثال آخر ..

« في بعض طرقات المدينة - يقول أحد المتصوفة - رأيت

الإمام أبا جعفر محمد علي الباقر - ع - متكنأ على غلامين يتصبب
عرقاً - وكان الوقت صيفاً - .

فقلت : أصلحك الله ، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة
على مثل هذه الحالة ، في طلب الدنيا ؟ ! أرأيت لو جاء أجلك
وأنت على هذه الحالة ؟

فقال : لو جائي الموت وأنا على هذه الحال ، جائي وأنا في
طاعة من طاعة الله عز وجل ، أكف بها نفسي وعبالي عنك
وعن الناس ، وانما كنت أخاف لو جائي الموت وأنا على معصية
من معاصي الله .

فقلت : صدقت - يرحمك الله - أردت ان اعظك
فوعظتني .

لا حضارة بدون عمل :

كان هذا الرجل يتبع بعض المذاهب الصوفية التي تسربت
إلى الإسلام ، والتي كانت تدعو إلى السلبية والانطواء ، وتزعم
ان أفضل ساعات الانسان هي التي يعيش خلالها بعيداً عن
متطلبات الحياة . فلما رأى الامام يسمي في طلب الرزق هاله
ذلك وجاء لينصحه بيد ان الامام كان يمثل - بدوره - فلسفة
الاسلام الايجابية التي تدعو إلى بناء الحياة الفاضلة والمثابرة في

سبيل ذلك ، حتى في حالات الشيخوخة المرهقة .

لهذا عبر عن العمل – بالطاعة لله – لماذا . . ؟

لأن الذين يمثلون الدين هم في الوقت ذاته دعاة حضارة ، ولا

تبنى حضارة دون مشاركة دائبة في سبيل العمل .

ان العمل غنى ، والغنى قوة . . وجدير بالمؤمن أن يكون

قويًا ، ليحقق أهدافه . بل ليحافظ على إيمانه .

عبد الأعلى – من شيعة الامام الصادق – عليه السلام يقول

استقبلته في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر ،

فقلت : جعلت فداك ، مالك عند الله وقرابتك من رسول الله –

صلى الله عليه وآله – وانت تجهد نفسك لنفسك في مثل

هذا اليوم ؟

فقال : يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لاستغني به

عن مثلك .

ويقول الامام الصادق عن نفسه : اني لا عمل في بعض ضياعي

حتى أعرق ، وان لي من يكفيني ، ليعلم الله عز وجل اني أطلب

الرزق الحلال ..

فالإنسان لا يمكن أن يبقى بدون رزق فان طلب – النوع

الحلال منه - استغنى عن الحرام . أو ليس اذن طلب الحلال عبادة ، لأنه يغنى عن الحرام .

رأيت الإمام أبا الحسن - عليه السلام - « والكلام لبعض الرواة » يعمل في أرضه ، وقد استنقعت قدماءه في العرق .

فقلت : جعلت فداك أين الرجال ؟

فقال : قد عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه . قلت : من هو ؟

قال : رسول الله - صلى الله عليه وآله - وأمير المؤمنين - ع - وآبائي كلهم ، كانوا قد عملوا بأيديهم ، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين .

هكذا يرفع الإسلام العمل إلى مستوى « القيمة الدينية المقدسة » .

ولكن هل : يقف الإسلام عند هذا الحد كلا انه يتجاوزه ليضع قانون « من لا يعمل لا يأكل » في اطاره الإنساني المناسب .

ملاحظة الكسالى

إن السعي وراء تثبيت قيمة عالية للعمل في المجتمع لا يقتصر

في الإسلام على التشجيع واعطاء الدروس العملية ، بل يتجاوز ذلك حتى يتجسد في ملاحقة الكسالى والعطلة وأيضاً قتل جرائم « الكسل » في جسم المجتمع فكيف تتم ملاحقة الكسالى وكيف تقتل جرثومة الكسل ؟

الاسلام يحرم ويعاقب على اللهو والباطل الذي يمتص طاقات الانسان وهو لا يدع في المجتمع فجوة تتسرب منها اليه - الميوعة والانحلال .

فمثلاً : القمار حرام في الاسلام بكل اشكاله ، لأنه يشجع الفرد على اللهو والتقاعس عن العمل الجاد .

والربا - جرثومة - للكسل تشجع طائفة من الناس على الترهل ذلك لأن المرابي يتحول إلى عنصر (مرض) يفرز من حوله الكسل إذ يموت في نفسه الخوف والرجاء ولأنه مترهل فهو يستقطب من حوله شلة يقضي معهم ساعات فراغه . يقول الله تعالى عن علاقة الربا والكسل: « الذين يأكلون الربا - لا يقومون - الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » ويمنع الاسلام الخمر ، لأنها تدعو إلى الترهل والميوعة ويقول عنها وعن القمار :

« انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان » .

وأخيراً يريد الإسلام ان يكون المجتمع حياً .. نشيطاً
يتحرك باتجاه واحد هو البناء ويوظف كل طاقاته في ذلك .

ويمنع الإسلام الحكرة والغش والتعيش على النعمة وتفريق
الناس وأكل المال بالرشوة و .. و ..

سياسة تربوية جديدة

لأن كل ذلك - أسباب للكسل - وامتصاص للطاقة في الهدم
وهدر لكرامة الإنسان . يعبر القرآن عن كل ذلك بكلمة واحدة
هي « الباطل » فينهى عنه ويقول « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا
أموالكم بينكم بالباطل » .

واستناداً إلى هذه الآية حرم الفقه الإسلامي : الاكتساب
بكل وسيلة محرمة كما حرم ابتزاز الأموال بوسائل لا تعود على
الناس بالخير .

والمستول عن تنفيذ هذه التعاليم - هي - التربية الصالحة كما
انها هي المسئولة عن بث روح العمل الجاد في الأمة .. لكي
يتحول إلى تقدم صناعي مزدهر .

والمطلوب سياسة تربوية جديدة تتحمل المسؤوليات الكبيرة
وتنتهج المناهج التالية :

الاعلام الصناعي

أولاً- لا بد ان تتجه أجهزة الاعلام ناحية التوجيه الاقتصادي ليعرف كل فرد انه مسئول عن تقدم البلاد وان منطقة مسؤوليته هي بالضبط موقع عمله وان زيادة انتاجيته هناك وبابتكاره الوسائل الجديدة وأخيراً بقدرته على التفاعل مع الآلات الحديثة بكل ذلك يتم تقديم البلاد .

ان رجل الشارع في بلادنا لا يعرف شيئاً عن أوضاع بلاده الاقتصادية ولهذا فهو لا يتحمس للعمل بالسياسات الاقتصادية المتبعة بالرغم من امتلاكه لحماس وطني مشوب ، ذلك لأن هذا الحماس وحده لا يفيد فالانسان يتقدم حينما توجد لديه أهداف محددة ووسائل محددة توصله إليها .

وقد يكون لرجل الشارع عندنا أهداف يتحمس لها ولكن ليس لديه ايمان بالوسائل التي تقترحها الدولة وعلى أجهزة الاعلام ان تقوم بتوصيل (الوسائل) بـ « الأهداف » في ذهنية الأمة ، كما فعلت من قبل أجهزة الاعلام في البلاد المتقدمة .

فمثلاً الاتحاد السوفياتي الذي أراد القفز من حضيض التخلف إلى قمة التقدم خلال ربع قرن . . ماذا فعل ؟ وجه كل أجهزته نحو التوجيه الصناعي فلم يمر خطاب واحد من خطب الرؤساء إلا وفيه دعوة صريحة نحو البناء الاقتصادي حتى كان يخيل

للمراقب انهم دعاة صناعة قبل أن يكونوا دعاة إلى الشيوعية ،
كذلك يجب ان يتحول كل فم وكل قلم « منا » إلى داعية للتنمية
الاقتصادية .

لا مجال للهو ..

ثانياً - يجب ان نمنع كل هـو باطل لنزيد من جدية الشعب
وإثريته في البناء فإننا لا يمكن ان نطالب الشعب بالعمل الجاد
في جو تملئه أصوات الغناء وصور النساء وأفلام الخلاعة وقصص
المغامرات الجنسية وأبضاً كؤوس الخمر .

في سنوات التنمية الأولى منعت الدول الصناعية كل هذه
الأمور لأنها شعرت بانها لا تزيد الشعب إلا تخلفاً ذريعاً .

ثالثاً - وفي حقل التربية الخاصة (المدارس - الأسرة -
التوادي) يجب أن تتركز الجهود لبث روح العمل في الفرد
لينمو و كله حب للعمل وتقدير للعاملين ، لا ريب أن الرياضة
البدنية تقوم بدور فعال في تربية الشباب على النشاط ، ولكنه
دور ناقص ، إذ يختلط به اللعب بالجد ، انما يجب ان ابدعهم
يتكتلون في جمعيات خيرية لمساعدة الضعفاء والمكوبين ونشجعهم
على القيام بمشاريع معينة كاقامة المصانع والعمل بها وبالتالي يجب
أن نجعلهم يشعرون أن العمل شرف . والكسل مهانة وذل -
وإذ ذاك نطمئن إلى أنفسنا باننا أجدنا تربية الشخصية العاملة .

الافتقار الى التفاعل

وبعد التربية يأتي دور التعليم حيث يصبح التعليم آئذ وسيلة
لهدف معين حددته التربية وجعلته يختمر في ذهنية الفرد .

إن التعليم الذي لا هدف له تكويم للمعلومات على قشرة
الذهن - يرفضه الفكر - كما ترفض الصخرة السماء البذرة - بينما
التعليم المهادف انما هو تفاعل بين الفكر والسلوك
داخل محيط الذهن الخصب - كما تنمي الرجوة الصالحة
الزيتون والرمان .

ان الخطأ الكبير الذي نرتكبه نحن هو : اننا نحتطب
« المعلومات » دون ان نتفاعل معها ، وذلك يؤدي إلى عدة
نتائج سلبية سنفصلها فيما بعد ، أما الآن فعلينا أن نعرف أن
الدول المتقدمة قبلنا بدأت بالتربية وانتهت إلى التعليم فإذا أخذنا
الولايات المتحدة مثلاً مناسباً لدولة متقدمة رأينا أنها وجهت
اهتمامها أولاً ناحية التربية والاندفاع النفسي إلى التنمية وبعد ذلك
شرعت في التعليم ، وإنما ركزت اهتمامها بالتعليم منذ السنوات
الثلاثينية من هذا القرن حتى سنة ١٩٥٧ حيث أخذ «التعليم»
- والتعليم الفني العالمي خاصة - يدخل في الحياة الاقتصادية
ويصبح أحد الأسباب الرئيسية في توليد تيار التنمية .

ومع ذلك لم يكن التعليم كل الاسباب التي أدت إلى التنمية

فقد أثبتت التجربة أن التعليم العام للانسان قد يشارك بنسبة ٢٠ ٪ فقط من مجموع الأسباب الأخرى المؤدية إلى التنمية .

المطلوب منهجية في التعليم

وبالرغم من أن التعليم أصبح اليوم السمة العامة للدول المتقدمة . . . حتى أننا نميز الدول النامية - بانها التي تكثر فيها نسبة الاميين بعكس الدول المتقدمة . فمثلاً تصل نسبة الاميين إلى ٦٢ ٪ في المكسيك وإلى ٨٠ ٪ في الهند وإلى ما يقارب ٦٠ ٪ في أندونيسيا بينما هي في استراليا ونيوزلنده وهما في الدول المتقدمة - أقل من ٥ ٪ وفي بعض الدول المتقدمة لا أمية أبداً .

ولكن لا يعني هذا أن التعليم سبب رئيسي من أسباب التنمية ، بل يدل على أنه نتيجة لتقدم الدولة وهدف من أهدافها البعيدة .

ولكن لكي لا نشط عن الحقيقة لا بد أن نقول انه أصبح للتعليم دور كبير في التنمية ولكن ليس في كل وقت وبكل شكل .

انما يجب أن يتبع التعليم منهجاً يقتضيه التخطيط الشامل للتنمية ليكون التعليم واحداً من مجموعة الرساميل الموظفة في

عملية التنمية وذلك يقتضي أمرين :

- ١ - توقيت درجات التعليم بخطوات التنمية .
- ٢ - تكثير التعليم الفني حسب حاجات التنمية .

فعن التوقيت يعتقد الخبراء أن حاجة البلاد النامية إلى
الرأسمال القومي يجعلها مقتصرة في صرف المال على التعليم إلا
حينما ترى في ذلك حاجة انمائية ملحة .

يقول الأستاذ «لويز» في مقال نشر له سنة ١٩٦١ في أعقاب
مؤتمر للتنمية الاقتصادية عقد بجامعة أكسفورد: « ان انشاء المزيد
من المدارس الابتدائية في الدول النامية ينبغي أن يسير جنباً إلى
جنب مع معدل النمو الاقتصادي في القطاع الحديث من الانتاج
أي في تلك النشاطات التي تستخدم المزيد من وسائل الإنتاج
الرأسمالية الكثيفة مستبدلة اياها بالوسائل الزراعية التقليدية
واليدوية الضعيفة الانتاجية . فهذه الأنشطة الاقتصادية التي تبدأ
في استخدام الوسائل الانتاجية الحديثة ستزيد من الإنتاج تباعاً
وستطلب المزيد من العمال الحاصلين على الشهادة الابتدائية » .

وبهذه العملية يصبح التعليم جزءاً من الاستثمار الوطني وقد
أبد بحث قيم لعالم سوفياتي هذا الأمر إذ قال : ان نشر التعليم
الابتدائي في روسيا السوفياتية على طول البلاد وعرضها أدى إلى
فوائد اقتصادية قدرت بـ ٢٤٣ مرة من جملة ما انفق على هذا

التعليم من استثمارات .

كل ذلك يدعونا إلى جعل التعليم الابتدائي جزء من خطة للتنمية وليس هدفاً بذاته يتناقض مع سائر أهدافنا الاقتصادية . . وإذا جعلنا التعليم جزءاً من خطة ، لا بد أن نراعي حاجة الخطة العامة إلى أنواع معينة من التعليم فالبلد الذي يقوم بالثورة الخضراء لا بد أن توفر مهنين في الزراعة بينما البلد النفطي الذي يحاول استثمار نفطه بنفسه يجب أن يركز اهتمامه في تربية الخبراء النفطيين وهكذا .

ولكن هل نحن نفعل ذلك . ؟ كلا، والمقارنة التالية تكشف لنا عن الفجوات البعيدة في التعليم :

إن ٤٠ ٪ من شباب الاتحاد السوفياتي و ٤٤ ٪ من شباب الصين يعيشون اليوم مقيدين ببرامج للتدريب الزراعي والصناعي بينما تهبط هذه النسبة في الهند إلى ٤ ٪ فقط .

فهل يعني ذلك سوى عقم التخطيط . . وهل سيؤدي ذلك إلى نحو تكديس الشهادات فوق بعضها وتهجير الأدمغة إلى الخارج؟؟ والسؤال : ماذا عن الاسلام ونظريته إلى التعليم ؟ وهل نستفيد من تعاليمه ما يعالج الموقف ؟ لننظر اليه ماذا يقول :

(٢)

الثقافة : إطار التعاون

هناك من يرى أن للمجتمع روحاً عامة تتفاعل داخل بحر هائج مياهه مجموعة أفراد المجتمع .

أصحيح أم باطل هذا الرأي الذي تبناه فريق كبير من علماء الاجتماع ؟

الواقع ان هذا الرأي صحيح نسبياً . إذ ان مجموعة العلاقات الاجتماعية - تشكل - إطارات معينة . تؤثر في أفكار كل فرد . وقد سماها علماء الاجتماع - بروح المجتمع .

والثقافة الاجتماعية . هي مادة كل الاطارات . التي يحلو لنا ان نسميها بالقيم السامية التي يقدها جميع الأفراد . ويتفقون عليها - مهما اختلفوا في غيرها .

ومشكلة الدول المتخلفة - انها تقدر قيمياً تتناقض في كثير من الأحيان ، مع واجبات التنمية الاقتصادية . أو في أفضل الأحيان - لا تخدم هذه القيم ضرورات التنمية مما يحدو بنا إلى تبديلها بقيم أكثر فائدة وخدمة .

فالقيمة الأساسية التي يجب أن تعطى - للتعاون والتنظيم - حتى تستطيع الدولة من التقدم - ليست غير موجودة فقط بل وقد نجد عوضها - قيمة اجتماعية تقدر التفرقة والفوضى . كثيرأما نسمع : إذا أردت السداد فابتعد عن العباد أو : التنظيم في اللا تنظيم .

والمشكلة ليست في وجود مثل هذه الأمثلة التعميسية ، بينما - إنما في تجسيدنا لمحتواها الأتس .

فنحن لا نعيش - عملياً - التعاون والتنظيم . بالرغم من أن كل شيء في عالمنا هذا . يصنع التعاون والتنظيم . حتى الحذاء المتواضع - لم يعد يصنع بيد خفاف ماهر - إنما ينشأ على يد الف « خفاف » وبضعة آلات .

وعودة التعاون إنما هي :

أولاً : بتصفية الأفكار « الانفصالية » الراسبة في ذهنية الأمة .. ثم بث روح الانفتاح والتفاعل فيها .

ثانياً : إيجاد هزة قوية تكسر اغلال النفس وتبعثها نحو العمل والنشاط . ذلك لأن بمجرد شعور النفس - عن طريق

لهزة القوية - بضرورة الانطلاق - تتجاوز تناقضاتها الداخلية .
وتتغلب على مشكلات التعاون بسرعة فائقة . ولذلك لم تتم
الوحدة الرصينة بين أبناء الأمم إلا عند الهزات الإجتماعية القوية .

والإسلام - كعقيدة ونظام وخلق - يبحث على التعاون -
ويقول في أكثر من موطن « وتعاونوا على البر والتقوى » ومع
وجود الأيمان الصادق بالإسلام - تتوفر الدواعي كلها للتعاون
- وذلك :

١ - لأن أمر الدين بالتعاون صريح ومؤكد ولا يسع المؤمن
الصادق التسامح فيه .

٢ - ولأن الدين لا يأمر بالتعاون حتى يعبد سبله بتعاليم
خلقية أخرى : (حسن الظن - تحريم الغيبة - وجوب نشر
المعروف - إشاعة السلام والكلمة الطيبة) حتى تجعل المجتمع ،
متواداً نفسياً . قبل أن يتعاونوا في الخارج !

(٣)

الثقافة والتنظيم والتنمية

أولاً : ما هو دور التنظيم والمنظم في التنمية ؟

يقول علماء الاقتصاد : إن المنظم يمثل العامل الديناميكي في العملية الإنتاجية فضلاً عن أنه المبدع الرئيسي لعملية التغيير والتقدم التي هي سند لتقدم المشروعات الإنتاجية في جميع الدول^(١) .

وما هو المنظم عن هؤلاء ؟

إنه حسبما يقول (هاربيسون Harbison) الشخص الإداري

(١) P . Alpert ' Economic Development P (157)

الذي يقوم بالعملية الإدارية داخل المشروع يقول : «بأن عملية النمو الاقتصادي عموماً لا تقع على الأرض ورأس المال والعمل والتكنولوجيا مجتمعة وإنما ينبغي أن يكون هناك عنصر آخر يربط هذه العوامل الإنتاجية بالنسب الصحيحة ثم يبدأ العمل - ويتابع هذا العمل بنجاح » .

وقد أراد بعض الاقتصاديين حذف دور المنظم - ولكن التجارب الكثيرة - أظهرت فشل هذا الرأي . ذلك لأن المنظم يقوم بعدة أعمال - لا بد من معرفتها لكي نعرف أولاً خطأ هذا الرأي ونفتش ثانياً على ضوءها عن ذلك المنظم الكفوء . الذي يدير المصنع .

أما الأعمال فهي :

١ - يقوم المنظم بتقدير الظروف التي تحيط بالعمل، ويحاول تطبيق المبادئ حسب مقتضيات تلك الظروف .

وبدون المنظم الكفوء ، تبقى الخطة الاقتصادية عديمة الجدوى ، لأنها تفقد التعيين وتكون آنئذ كوصفة علاج ليس لها صيدلي .

الخطة تقول : مثلاً إذا انخفض الإنتاج - تجب مضاعفة عدد العمال . - ولكن من سيعرف لغة هذه الخطة ، ويفهم نسبة انخفاض الإنتاج ومدى تأثير عدد العمال في زيادة كمية الإنتاج .

في هذا الظرف بالذات ؟ ليس ذلك إلا المنظم .

إذ قد يكون إنخفاض الإنتاج آتياً من زيادة عدد العمال -
أو نقص مهاراتهم . أو قلة الموارد الأولية - أو ... أي سبب
آخر غير قلة عدد العمال . ولا يميز ذلك سوى المنظم .

ويتجاوز دور المنظم التطبيق النظري إلى التنفيذ العملي .

٢ - فهو الذي يث روح العمل والمثابرة في الكادر العامل .
ويمثل بذلك دور المحرك في جهاز المصنع - وشخصية المنظم هو
الذي ينفذ كثيراً من الأوامر - إذ ان الإنسان - يتعامل مع
نظيره الإنسان أكثر من معاملته مع الأوراق التي سطرت
فيها الأوامر .

٣ - طبيعة العمل تقتضي - وجود تناقضات عديدة بين
العمال - مع بعضهم - وبين الإنتاج والمواد ، بين السرق والإنتاج
- بين الخطة والتطبيق - إلى آخره .

والمنظم - يملك ميكروسكوباً قوياً يرى من خلاله - الأهم
والمهم - فيقرر - ما اذا كانت التضحية بقلّة المادة المنتجة أفضل
أم يجودتها . والاستغناء عن هذا العامل أفضل أم عن ذاك
وتخفيض الإنتاج خير - أم تصعيده - أم خفض سعره
وهكذا ..

ولأن هذه الرؤية لا تكون - سليمة دائماً. فإن المنظم يتحمل مسؤولية القرار - وتكون عليه الخسارة .

وهذه المسؤولية هي التي تعطى المنظم حرية الحركة لأنه بقدر ما يتحمل الفرد مسؤولية قراراته - بقدر ما يعطى حرية العمل من جهة . وتكون له - من جهة أخرى - أرباح العمل ..

ومن هنا يعتقد (سيتوارت ميل) : « إن الأرباح التي يحصل عليها المنظم هي بمثابة تعويض يحصل عليه المنظم نظير تحمله أخطار الإنتاج » .

٤ - يكون المنظم الكفوء بمثابة المنظار الصافي الذي يرينا المسافات البعيدة . فهو يتطلع أبداً إلى المستقبل - ويضع الخطط الكفيلة بـ « غزوة » وإقتناص « الفوائد » منها مما يشجعه على المخاطرة والابتكار وأيضاً يعطيه نوعاً من التنبؤ بالأحداث القادمة .

ذلك فإن كثيراً من الاقتصاديين يرون : روح المخاطرة والابتكار السمة البارزة في المنظم الكفوء .

يقول « شوبيتز » : ليس المنظم المتحمل لمخاطر الإنتاج ولا هو المدير المسؤول عن الأعمال الروتينية العادية وإنما هو الشخص الذي تقع على عاتقه مهمة الابتكار والتجديد !

وهو يعني (بذلك) إنتاج منتجات حديثة ووضع مخترعات جديدة وتعديل وسائل الإنتاج وابتكار نسب جديدة لعوامل الإنتاج وفتح أسواق غير معروفة - وبالتالي : المنظم - هو الضابط الثوري في جيش الاقتصاد .

بهذا نعرف ليس فقط ضرورة المنظم - بل وأيضاً سخافة الفكر الشيوعي ، الذي أراد إلغاء دور المنظم - أو لا أقل حاول التقليل من أهميته حينما الصق كارل ماركس (نبي الشيوعية !!) إلى المنظم تهمة السرقة - ولكن ما كانت النتيجة ؟ - ان الدول الشيوعية عادت وخلقت طائفة جديدة من المنظمين بل ان - لينين - عاد وطور هذا المبدأ واستخدم المنظمين خلال السنة الأولى - لثورته الحمراء - وهكذا فعل « ماو » وكتب عن ذلك مؤلفاً ، اعتذر فيه عن عدم امكانية ضرب البرجوازية الوطنية و ... لأسباب اقتصادية .

وفي مصر الاشتراكية ماذا دلت التجارب ؟؟

ينقل الكاتب الاشتراكي « صلاح الدين نامق » عن العالم الاقتصادي « هاريسون » قوله :

إن الاختلافات في نوعية وكفاءة التنظيم تفسر الاختلافات في الكفاية الإنتاجية العمالية - فقد لاحظ بعد دراسة عميقة دقيقة للمصانع المصرية التي تستخدم أحدث العدد والآلات التي تتعادل تماماً مع العدد والآلات الأمريكية أن متوسط انتاجية

العامل المصري تتراوح من سدس إلى ربع انتاجية العامل الأمريكي في المتوسط .

وهو يعزى ذلك إلى نوع الإدارة والتنظيم في المصانع المصرية الجديدة ويعتقد انها في مستوى منخفض للغاية مما أثر بدوره على عمل العامل - يقول : إن التنظيم الإداري الحديث في مصر والمبني على أسس علمية هو تنظيم نادر أو يكاد لا يوجد كذلك فان وسائل التنظيم والإدارة المتبعة هي وسائل بدائية للغاية^(١).

هكذا تتبخر أفكار الشيوعية في حمى التجارب الصادقة . بيد اننا لا نكون واقعيين تماماً : لو أولينا المنظم كل اهتمامنا ونسينا - الروح الانضباطية التي هي شرط أساسي في العمال حتى يكونوا قابلين للتنظيم . واقتقاد هذه الروح في البلاد الإسلامية . عامل هام من عوامل انخفاض « إنتاجية العمال » إلى جنب اقتقاد المنظم الكفوء .

و كثيراً ما تستقدم البلاد الإسلامية منظمين اكفاء من الخارج - ولكن سرعان ما تفشل كفاءتهم حينما تصطدم بالكسل والفوضى واللا انضباطية الشائعة بين العمال !

مما يدل على أن التنظيم مشلول إذا لم يجد الأرضية القابلة

(١) التنمية الاقتصادية ص ١٣٠ .

له - فمثلاً - استقدمت أندونيسيا بعد الحرب العالمية خبيراً عظيماً في التخطيط الاقتصادي يدعى « الدكتور شاخت ». كان هذا الخبير المانياً ومخلصاً وعصر كل تجاربه في وضع خطة للتنمية في أندونيسيا .. ولكن هل نجحت الخطة التي كانت متشابهة للخطة التي وضعت في ألمانيا المهزومة بالحرب ، ؟ كلا بل عادت الخطة بخسائر كبيرة على أندونيسيا لماذا ؟ لأنها كانت ينقصها الروح التنفيذية يقول مالك بن نبي « إن التخطيط في البلد الإسلامي قد يؤدي إلى التخلي عن مكاسب بدلاً من تحقيق مكاسب جديدة - فعندما يتزايد الشذوذ (ويقصد به فقدان الروح التنفيذية) يتضاعف اهتمامنا بهذا الشذوذ (١) » .

إذن فإننا بحاجة إلى « ديناميكية اجتماعية » تقوم بدور « المفجر » لطاقات الأمة الكامنة وآئذ يكون المنظم الكفوء قادراً على القيام بدوره - أفضل قيام .

والأهم من كل ذلك : إن الانضباطية في العامل تخلق الكفاءة في المنظم إذ الحاجة أم الإبداع - فما دام الرئيس يرى ان الأفراد يطيعونه - يتحسس بثقل المسؤولية على كاهله فيعصر نفسه عصراً حتى يصبح كفوءاً لتحمل هذه المسؤولية .

(١) مشكلة الأفكار في البلاد الإسلامية ص ١٥٠ .

الاسلام : والتنظيم الخلاق :

والإسلام يركز اهتمامه - بهذه النقطة التي هي محور الدائرة حين يقوم - بخلق جو يوصي بالتنظيم ثم يغرس في هذا الجو - المناسب - ملاكات منظمة .. ولكن كيف ذلك ؟ لتتابع خطوات الإسلام منذ البدء :

١ - ينمو الطفل - في المجتمع المسلم - في جو تسوده الطاعة إذ في محيط الأسرة يكاف أعضاءها بطاعة الأب. وكذلك تصبح الطاعة عند الوليد تقليداً مقدساً .

٢ - ويلحق الإسلام هذا الطفل - ليقول له - مرات - ومرات - أطع والديك .

٣ - وحيث تتوسع الأسرة ، لتتحول إلى قبيلة - تبقى الطاعة للجد - سمة عامة تطيع الحياة الاجتماعية بطابع الانضباط .

٤ - وفي الحياة الاجتماعية يوصي الدين باتباع المعالم وولي الأمر والناصح . و . و ..

٥ - والتعاليم الإسلامية : توصي - هي الأخرى - بضرورة الطاعة - مثل - الصلاة - جماعة . والحج - و . و .

٦ - وتتلو هذه التعاليم : أوامر مؤكدة بضرورة تنظيم كل

الشؤون من قبيل قول علي عليه السلام « الله الله في نظم أمركم » .
بهذا يشبع الجو العام بالأنضباط في النفس - بالاضافة : إلى
ما يتسم به الإسلام من تفجير روعي هائل - داخل النفوس -
حسبنا بينا سابقاً .

وبعد ان يصبح الجو ملائماً لظهور كفاءات تنظيمية قديرة .
- يخطط الإسلام لذلك - ويقرر ما يلي :

١ - يشكل مدرسة اخلاقية تصنع « الشخصية القائدة » وبفضل
هذه المدرسة : استطاع الإسلام تكوين قادة مثاليين - في فجر
الإسلام - حكموا البلاد سياسياً واقتصادياً. والتعاليم الإسلامية
في الخلق والسلوك تعاليم مثالية في قدرتها على بناء مثل هذه
الشخصية . وليس من ريب : أن لهذه التعاليم آثاراً أبعد مما
يتصور فمثل هذه التعاليم هي التي خلقت ملاكات تنظيمية في
اليابان اذ أن نظام « الساموراي » بتقاليده العريقة وصفاته
الإدارية الأصلية هي المدرسة التي خرجت طبقة المنظمين للصناعة
اليابانية ^(١) .

٢ - وبعد مدرسة الأخلاق يفتح الإسلام أمام الأمة مدرسة
الحياة - ويشجع الناس على التجارة والسياحة - ويعطيهم الحرية
الكافية في ذلك -

(١) المصدر ص ١٣٣ .

والحرية السياحية والتجارية - هي المدرسة التي خرجت
للولايات المتحدة - حسب رأي (كندليدجر -) - المنظمين
الصالحين .

٣ - ولكن يجب ألا نكتفي بالمدرسة الخلقية والحياتية
الإسلامية . لا بد ان نبني « مصنعا » آخر للملاكات التنظيمية :
بتوجيه الأمة نحو العلوم التنظيمية . وجعلها مادة أساسية في
مناهج التعليم . وذلك مثل علم الإحصاء والتخطيط . وعلم
الإعلام وعلم العلاقات العامة ، كل ذلك بالرغم من أن بعض هذه
العلوم لم تدخل في المفهوم الحديث « للعلم » ولكن المهم ابتكار
وسيلة جديدة لصنع الكوادر القائدة .. حتى ولو استلزم ذلك
« صنع » علوم جديدة .

(٤)

بين الثقافة والاستثمار

ان هناك تناقضاً ظاهراً بين التقدم الاقتصادي وبين الاستهلاك من جهة . والاستثمار في الخارج من جهة ثانية . وهذا التناقض يسبب عقبة كأداء في طريق التنمية . لا تتجاوزها الأمة بدون وعي جماهيري عريض ؟ كيف تتكون هذه العقبة . . . ثم كيف تذلل بالوعي - اليك تفصيلاً بذلك :

١ - لقد اثبت التاريخ الاقتصادي للدول التي قطعت بالفعل مراحل التقدم انها لم تستطع الوصول إلى ما وصلت اليه - من دون استثمار كميات هائلة من إنتاجها القومي بصورة مستمرة بينما الدول المتخلفة تعاني من عدم وجود رأسمال قومي يمكن استثماره في المشاريع الانمائية . وذلك يعود إلى عدة أسباب منها ضحالة المدخرات التي من الضروري توفرها في هذه الدول .

يقول البروفسور « رستو » اعتماداً على دراسات اقتصادية واسعة أن أقل نسبة من المدخرات الصافية التي ينبغي توافرها في الدول النامية لإحداث التنمية المتوازنة لا ينبغي أن تقل عن ١٠ ٪ من اجمالي الناتج القومي ٠ بينما تبلغ - في اندونيسيا - مثلاً ٣ ٪ - فكيف يمكنه إحداث التنمية المطلوبة ؟

٢ - هذا لا يعني عدم وجود ناتج قومي مناسب يمكن أن يتحول إلى رأسمال ضخم يستخدم في الاستثمار والتنمية . لا يعني ذلك ٠ بقدر ما يعني التفريط في هذا الناتج - للجهل بمتطلبات المستقبل - إذ ينفق هذا الناتج - فور ما يصل لأيدي الشعب على السلع الاستهلاكية التي تستخدمها الطبقة الفنية تقليداً لمثيلتها في الدول الراقية يقول البروفسور « نور كسي » إن سلع الإستهلاك الترفيهية تصل إلى الدول المتخلفة اليوم في سهولة ويسر عن طريق الاستيراد من الخارج ولا يمكن ان تصنع داخلياً وهنا تبرز المشكلة فشعوب الدول المتخلفة تعلم كل شيء عن هذه السلع الإستهلاكية الترفيهية وتراها رأى العين معروضة في المحلات التجارية الكبيرة أو في المحلات الأجنبية المصدرة وفي الأفلام السينمائية الأجنبية التي تصل إلى هذه الدول ومن هنا تعمل الشعوب النامية على اقتنائها بشغف بالغ وهي بالفعل تقتنيها - في أحوال كثيرة - ومن ثم يزيد الميل إلى الإستهلاك الامر الذي يؤدي ولا شك إلى الإنقاص من المدخرات الفردية التي تتمتع بها هذه الطبقات .

إن مشكلة الدول النامية . هي هذه المبالغ الطائلة من الدم
النقي الذي ينزف من جسمها النحيل ، على شكل - أثمان لمواد
استهلاكية ترفيفية أو كالية . . فكيف يمكن وقف هذا النزيف؟
الواقع إن الوعي أفضل جواب على هذا السؤال إذ أنه يحافظ
على حرية الشعوب وكرامتها من جانب ويفك التناقض الحاد بين
الإستهلاك والإستثمار من جهة ثانية .

إننا يجب أن نربي أجيالنا الصاعدة على الإيثار والتضحية على
العمل الجاد في سبيل المستقبل البعيد على شد البطون لفترة
طويلة قد تستمر بضعة عقود من الزمن ، وأخيراً نربهم ، على
إزدياد ساعات العمل وتقليص فترة الإجازات .

وليعلم أن الدول المتقدمة ، زهدت في المواد الإستهلاكية لبضعة
سنين ، فأصبحت اليوم قوية عزيزة وعلينا أن نزهد اليوم قليلاً
حتى نحظى بالغز والرفاه في المستقبل .

الاسلام والادخار :

ويهيء الإسلام الناس للإدخار ثم يتخذ عدة اجراءات منها أنه :

١ - يمنع الإسلام الإسراف ويعتبره خطيئة تجعل من عاملها
في مستوى ابليس « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان
الشیطان لربه كفورا » .

ويكون الإسراف نسبياً. وخاضعاً للظرف الإجتماعي الذي يقع فيه - ففي مجتمع يموت بعضهم جوعاً يكون تبديل طراز السيارة كل عام اسرافاً قبيحاً . وفي مجتمع نصف أعضائه بلا مأوى يكون اقتناء قصر ضخّم تبذيراً مكروهاً ، وهكذا ... وقد نبه الإسلام إلى ذلك حينما قال الرسول «ص»: « ملعون ملعون من بات شبعاناً وجاره جائع »

٢ - وقد جعل الإسلام - عقوبة صارمة لمن يتعدى حدود الإسراف ويبدد أمواله تبديداً - هي : مصادرة ممتلكاته جميعاً قال سبحانه : « ولا تَوَثُّوا السِّفْهَاءَ أموالكم التي جعل الله لكم قياماً و ارزقوهم فيها و اكسوهم و قولوا لهم قولاً معروفاً النساء / ٥ » .

إن الهدف المنشود من وراء المال لا يتحقق بالتبذير . ذلك لأن المال واسطة حركة لدولاب الإقتصاد.

وقد عبر عنه القرآن بكلمة « قياماً » يعني أن قيام الحركة الإقتصادية إنما هي بالثروة . وكل شيء لا يحقق هدفه - فهو باطل يجب تبديله .

٣ - ثم يضع الإسلام مبدء قانونياً عاماً هو مبدأ الضرر - ويقول « لا ضرر ولا ضرار » وهذا المبدأ - يعطي المجتمع المسلم ومن ورائه الدولة الإسلامية الحق في وضع قوانين

رأفة ، عن الإستهلاك فيما إذا أضر بمستقبل الأمة من قريب أو بعيد مباشرة أو بغير مباشرة .

٤ - كل ذلك - يفعله الإسلام ولكن لا يلجأ إليه كحل نهائي حاسم إنما الحل النهائي يتركز في تعاليمه الخلقية المقدسة التي تدفع الإنسان من درك الشهوات العاجلة إلى مستوى المصالح البعيدة . وبذلك يكون للأمة وعياً إقتصادياً شاملاً .

الاعتماد على الرساميل الوطنية

هل ذلك ضروري لتقدم الإقتصاد أم يمكن لهذه الدول الإعتماد على الرساميل الأجنبية في ذلك ؟

الخبر الإقتصادي - ينفي بوجه قاطع أي فرق بين الرأسمال الوطني والأجنبي لأنه ينظر إلى الأمر من زاوية اقتصادية بحتة - يستشهد بحال أمريكا في فجر انطلاقه الإقتصادي حيث اعتمد على رؤس الاموال البريطانية و الألمانية والفرنسية . وايضاً يستشهد باوضاع كثير من الدول النامية التي لا تزال تعتمد على الإستثمارات الأجنبية .

ولكن العالم السياسي يعرف كيف يتحول الدولار إلى سلاح غادر - وكيف يستخدم هذا ليس في قتل جرائيم التخلف - والفقر بل في قتل الشعوب المتخلفة - الفقيرة .

لذلك يرفض بشدة ربط الإقتصاد الوطني بالإستثمارات الأجنبية . ولكن دون أن يوصى بالإستغناء عنها كلياً .

وحتى الخبير الإقتصادي لو أوتي رؤية بعيدة المدى لعرف أن الإستثمارات الاجنبية ليست سوى مصيدة يصعب على الدول النامية الإنفلات من اغلالها !!

لهذا يجب أن نركز الإهتمام في الاستثمارات الوطنية ، ولكن تقف أمامنا عقبة تتلخص في تفضيل الطبقة الغنية ، الإستثمار في الخارج على الإستثمار في الداخل مما يسبب هروب الأموال الى الخارج .

وقد تشكل هذه العقبة ، وضعاً خطيراً للغاية بالنسبة إلى بعض الدول النامية ، حيث تعيش أكثر من ٩٠٪ من ثروتها في الخارج ، بينما يحتاج أبناؤها إلى كل قرش منه !!

هروب الرساميل هم السامة :

ولمواجهة هذا الوضع - تؤمم بعض الدول النامية مواردها - وتصادر ثروات الطبقة الغنية وتعلن الإستراكية - فهل يمنع ذلك من تهريب الأموال كلابل يزداد الأمر سوءاً - لأن الوضع الخطير هذا يشجع الطبقة الغنية على الفرار برؤوس أموالها -

حتى الثمالة وإلى أن تتمكن الدولة من وضع اليد على بعضها قد تمكنت اصحابها من إيداع الأكثر في بنوك الغرب .

ولفساد الأجهزة في الدول النامية - لا تستطيع الحكومة من إيقاف « هجرة الثروات » بل وقد تشارك الأجهزة المختصة في عملية تهجيرها لقاء رشوة أو قرابة .

وفي الفترة الأخيرة تعرضت بعض الدول الاشتراكية لخطر أكبر حيث تكونت فيها طبقة « البيروقراطية » التي ورثت من طبقة الأغنياء - مقاليد الثروة . وأخذت تهرب ما تستطيع تهريبه إلى البنوك الأجنبية بأمل أن تعيش عليها في المستقبل وكان ذلك نتيجة طبيعية لاطلاق يد هذه الطبقة في الحكم بالتأميم فعملية التأميم ليست سوى الجمرة التي يستجار بها من الرمضاء فلا بد من حل آخر .

ما هي العوامل ؟

يأتي الحل بعد معرفة العوامل التي تكمن وراء هروب الثروة إلى الخارج ، فما هي :

١ - يعمق توزيع الثروة غير العادل من الفجوة الموجودة بين طبقات الأمة وتنعكس آثارها السيئة على الوضع الاقتصادي وأبرزها - ضعف القوة الشرائية لدى الأغلبية الساحقة - وذلك عامل أساسي لضعف الانتاج الوطني وأبسط الأمثلة على ذلك انه في كولومبيا - وهو من البلاد النامية - لا يوجد مصنع للمصابيح الكهربائية - فذهب إليه وفد من البنك الدولي للإنشاء

والتعمير - لبحث إقتراح لإنشاء مثل هذا المصنع . ولكن الوفد عاد يحمل معه التقرير التالي : - إن أصغر مصنع آلي إذا عمل ثلاثة أشهر فقط فإنه يكفي مطالب كولومبيا لمدة سنة ويرجع ذلك إلى ضعف السوق المحلي نظراً لانخفاض القوة الشرائية لدى جماهير الشعب ورد لذلك هذا الاقتراح (١) .

٢ - وتختلف الدول النامية يضاعف من تكاليف الانتاج إذ أن ضعف انتاجية العمال - وقلة الكفاءات الفنية والتنظيمية وردائة المواصلات - و . و . كل ذلك يسبب قلة الإنتاج . وزيادة تكاليفه ويقلل بالتالي الأرباح .

٣ - ولأن الدول النامية تفقد الدراسات الموضوعية من الصناعة - فإن الأثرياء لا يغامرون بأموالهم في الاستثمار فيها .

٤ - وأهداف الأثرياء عندنا محدودة . وتطلّعهم قريب . ولذلك هم يرضون لأنفسهم بالأرباح الضئيلة التي يحصلون عليها لقاء الاستثمار في الخارج - أو لقاء إيداعهم ثرواتهم في البنوك الأجنبية: انهم يفضلون كل ذلك على إنشاء مشاريع صناعية تتحول إلى مؤسسة اقتصادية تفيض على البلاد بالخير والرفاه .

(١) I. B. R. D. The Basic of a Development Program for Clombia ,, Balimore 1950 p 93.

هذه هي الدوافع التي تكمن وراء « هجرة الرساميل »
فكيف يمكن تثبيت الدوافع ؟

ببساطة : التوعية الثقافية أفضل وسيلة ممكنة لذلك .

فإذا عرفت الطبقة الثرية أنها مسؤولة عن تخلف بلادها
وأدركت مدى الأضرار التي قد تنجم من بقاء هذا التخلف --
فإنها تفضل - آنئذ تشغيل ثرواتها داخلياً . على الأرباح الطائلة
والمضمونة التي في الخارج .

إن التنمية يجب أن تصبح « تطلعاً » جماهيرياً يتحمس لها
كل فرد منا - ليصبح العمل بمتطلباتها واجباً وطنياً مقدساً
ويُصبح العكس جريمة نكراء يعاقب عليها ضمير الإنسان ذاته
ثم جميع أبناء الأمة .

وبعد أن تتم التوعية . يأتي الدور لسائر العوامل المشجعة على
الاستثمار الداخلي . مثل الاستقرار وعدالة توزيع الثروة . و . و .
أسباب أخرى نتحدث عنها بإذن الله .

(٥)

الثقافة ونزيف الكفاءات

أصبحت هجرة الأدمغة مشكلة البلاد النامية . التي استدرت عطف الخبراء . وجعلتهم يتسائلون بأسى : كيف يمكن وقف هذا النزيف الشديد . الذي يعني - بكل بساطة - موتاً اقتصادياً مقسطاً ؟

والحقائق التالية تكشف عن مدى خطورة هذا النزيف المجهنم .

١ - إن الاحصاءات الدقيقة تدل على أن عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية من المهندسين المصريين في الفترة ١٩٦٢ / ١٩٦٧ بلغ ٨٩ مهندساً وإلى كندا ١١٦ وإلى فرنسا ٤٤ . أما عدد العلماء المصريين المهاجرين إلى أمريكا في ذات الفترة فهو ٥٧ وإلى كندا ٦٨ وإلى فرنسا ١٣ .

كما أن عدد علماء الاجتماع المصريين - ١٣ هاجروا إلى أمريكا و ١٧ إلى كندا - وعدد الأطباء ٩١ هاجروا إلى أمريكا و ١٠٠ إلى كندا في ذات الفترة .

واستراليا استقبلت بين ١٩٦٦ / ١٩٦٧ ١٢٨٥٠ مهاجراً مصرياً و ١٨٠٠ مهاجراً لبنانياً .

وتقول الاحصاءات أيضاً أن ٥٠ ألف شخص من ذوي الكفاءات قد هاجروا خلال ١٩٦٧ من الدول النامية . إلى الدول المتقدمة !

وقد يبدو ذلك بسيطاً باديء الرأي . بيد أن حقيقتين تجعلنا نذهل أمام ظاهرة الهجرة الأولى : إن البلاد النامية بحاجة ماسة إلى الكفاءات . وهي بدلاً من أن « تزرق » بالمزيد من هذا الدم « ينزف » المزيد منه لكي يصب في جسم يطفح بدم (الكفاءات) . الحقيقة الثانية : - إن تكاليف « صنع » كفاءة علمية تبلغ في الدول النامية ٢٠ ألف دولار ^(١) تخسرهما تلك البلاد التي هي بحاجة إلى كل قرش واحد ويربحها - في المقابل - تلك البلاد التي ليست لثروتها حدود .

(١) محاضرة البروفسور مالكولم أويستيا الهندي نائب المدير العام لمنظمة اليونسكو - أُلقيت في جامعة الدول العربية بالقاهرة عام ١٩٦٩ .

وإذا عملت العقول الاليكترونية لتفصح لنا عن لغة حسابية ، تبين مدى الخسارة التي تلحق بلادنا من جراء « هجرة الكفاءات » لقالت لنا : بكلمة « لا تحصى الخسارة » إذ ليست الخسارة في فقدان ٢٠ ألف دولار عن كل دماغ « مصنوع » بل تتجاوز ذلك إلى ابعاد أخرى مثلاً : إن لكل دماغ فكرة خاصة قد تفيد مستقبل البلاد بما لا يتصور من المنافع العظيمة .. أو ليس تقدم الامم إنما هو بنسبة المفكرين فيها ؟ من هنا :

يقول (روبير شومان) وزير البحث العلمي الفرنسي سابقاً : أن مائة ألف عالم قد هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ويعتقد أن هؤلاء قدموا للولايات المتحدة (رأسملاً بشرياً) تعادل قيمة ما وزعته أمريكا على الأقطار الأجنبية منذ نهاية الحرب حتى عام ١٩٦٨ وذلك على أساس من أن كلفة تحضير كل عالم هي عشرون ألف دولار، وهذا يعني خسارة الدول النامية ب (ألفي مليون دولار) . وهو رقم كبير !!

ونتيجة هذا الوضع - تبقى بعض الدول النامية تعاني من عدم الكفاءة - بينما تتهرب كفاءاتنا إلى الخارج فشلاً إيران وسوريا بحاجة إلى أطباء بينما يفوق عدد الأطباء المهاجرين من كل واحد منهما إلى أمريكا - يفوق عددهم عدد الموجودين في بلادهم بل ان عدد الأطباء الإيرانيين العاملين في ولاية نيويورك فقط

يفوق عدد كل أطباء إيران . فكيف بسائر الأطباء الإيرانيين المهاجرين إلى غير هذه الولاية ، من أقطار أمريكا وأوربا .

كيف العلاج ؟

وصفة العلاج التي تعطى عادة لمرض النزيف في الكفاءات - العلمية - تتضمن عدة عناصر سنتلو بعضاً منها - ولكن تغفل هذه الوصفة أهم شيئين لا يمكن أن تفيدنا بدونها سائر المواد العلاجية فأولاً : ما هما هذين الشيئين - وثانياً : ما هي سائر العناصر ؟

١ - الذي يذهب إلى بلاد أجنبية ويختارها لبقائه الدائم ، تاركاً ورائه كل علاقة تربطه بأهله وصحبه ومفان وطنه - لا بد أن يكون قد انفصل نفسياً عن ماضيه ثم أخذ يكرس هذا الانفصال عملياً ، في هجرته عن بلاده .

والعلاج المناسب لهكذا إنسان ربطه نفسياً بواقعه ، وفصله عن واقع الآخرين ، وجعله بالتالي يشعر بانتمائه إلى أهلٍ وإلى أرض وإلى تاريخ ومستقبل .. وهذا ما يجب توفيره في مناهج التعليم في البلاد .

والتوعية الدينية لا ريب تشكل عنصراً هاماً لربط الشخص بأهله ووطنه وماضيه ومستقبله ، ذلك لأن الذي يفضل خدمة

الأجانب ، وربما الأعداء ، على خدمة الوطن لقاء زيادة بسيطة في الثروة أو الراحة . هو إنسان ناقص يجب العمل على تكميله لأنه يقدم مصالحه الشخصية على مصالح بلاده العامة .

ولا تتقدم امة بدون كفاءات تفضل مصالح الأمة على المصالح الشخصية ذلك لأنه حتى لو كدسنا الكفاءات التي تعبد «الذات» وتنسى كل شيء إلا مصالحها الخاصة ، لو كدسناها في بلادنا فهل تحدينا شيئاً؟ كلا : إذ أن أي دور يُعهد إليها تؤديه تماماً ، بل يتسرب إليه الفساد واللامبالاة .

إذا يجب غرس القيم المثلى في نفوس أبنائنا وآئند نجعلهم يذهبون أنسى شأوا .

٢ - أساساً لماذا لا نصنع الكفاءات العلمية «محلياً» لماذا يجب على الطالب أن يقضي خيرة أيامه في أوروبا أو أمريكا أو روسيا . وهو يتعلم تقاليدهم ويتطبع بسلوكهم ويستهو به أسلوب حياتهم .

لماذا كل ذلك . أو ليس من الأفضل تربيته الكفاءات في أحضاننا ، حتى تنمو معنا وتتأثر بأجوائنا ، ولا تنفصل عن ماضينا ، ولا من همومنا في المستقبل .

إن أخطر مشكلة واجهتها الدول الإسلامية في مطلع هذا

القرن ثملت في التناقض الذي أوجده الموفدون إلى الغرب والذين عادوا بقيم ومناهج وعقليات غربية كانت بعيدة جداً ، عن قيمنا ومناهجنا .

واليوم خفت حدة هذا التناقض واستطاعت الأمة أن تثبت أعالمتها . ولكن بقيت جذور السبب الذي أوجد التناقض مستمرة ، وقادرة على احداث بلبلة فكرية .

فما هي جذور السبب ؟ البعثات العلمية التي تذهب لتتلقى العلم فتعود وقد تلقت التربية الغربية . واقتبست مفاهيم ناشزة عن وطنها شرها أكثر من خيرها !! إن هذين هما أهم عاملين ، يجب أن نلاحظهما لدى معالجتنا لمشكلة الهجرة . وقد أهملها الكتاب الاقتصاديون ، وهناك عدة عوامل ركزوا عليها ، وزعموا أن معالجتها تكفيهم مؤنة الهجرة ونحن نتعرض لها بإيجاز :

١ - يجب أن نوفر جو الكرامة اللائقة بمكانة الكفاءات فلا نحاول ، كما نفعل اليوم ، ربط الكفاءات العلمية بتيارات سياسية ، أو حق اصلاحية تمتص طاقاتهم وتعرضهم للمخاطر .

٢ - يجب أن نحترم الكفاءة دون أن ندخل في حسابنا اعتبارات زائفة كالطائفية والطبقية والإقليمية .

انني أعرف كثيراً من المهاجرين فروا من جو التمايز الطبقي أو الطائفي السائد في بلادهم ، بالرغم من أننا لا نعذر هؤلاء لأن وجود مفسد اجتماعية لا تدعو إلى الفرار من مسؤولية بل تستوجب البقاء والنضال من أجل اصلاح الواقع .

٣ - الرواتب التي تدفعها الدول النامية لأبنائها من ذوي الكفاءات قد تقل عن تلك التي تدفعها الدول المتقدمة . بأكثر من نصف مما يشجع هؤلاء على الهجرة . طلباً للمزيد من الرواتب .

٤ - كثيرون من ذوي الكفاءات العلمية ، يتطلعون إلى مراحل دراسية متقدمة . فيفضلون الدول المتقدمة حيث يمكن لهم تكميل دراستهم جنباً إلى جنب قيامهم بأعمالهم العادية بينما لا يوجد في بلادنا شيء من ذلك .

٥ - إن العلماء في البلاد المتقدمة يمكنهم ملاحقة التطور العلمي الذي يطرأ على فروعهم الإختصاصية ، مما يسمى بـ (صيانة الكفاءة) ولا يوجد مثل ذلك لدينا فإذا بالعالم ، بينما يردد نظريات بالية أكلها وتقيشها الزمن لأنه لم يتابع تقدم العلم خلال فترة طويلة .

لذلك يجب فتح دورات تكميلية في الدراسات العلمية لصيانة الكفاءات من « التخلق » وحفظها من « التخلف » وإذا أمكن يجب فتح صفوف للدراسات العالية وتشجيع الكفاءات

للاخراط فيها. إما عن طريق اجراء رواتبهم خلال أيام الدراسة
أو التوفيق بين دروسهم وأعمالهم !

٦ - واخيراً تنقطع الصلات بين الطلاب وذويهم خلال أيام
الدراسة فتعمق الهوة التي تفصل ذهنيتهن عن ذهنية أبناء وطنهم
وتتفاعل ، بنفس القدر ، نفسياتهم مع ظروفهم الجديدة في
المهجر ، هذا الوضع يشجعهم على البقاء فيه لأنهم أصبحوا أكثر
إنسجاماً مع ظروف المهجر .

من هنا يجب تكوين جمعيات تربط بين البعثات العلمية وبين
أوطانهم ، بمختلف الطرق الممكنة بالرسائل ، بالمجلات ،
بالاعلانات برحلات مؤقتة إلى أهلهم .. وهكذا .. حتى يستطيع
الحد من نزيف الكفاءات الذي يعني موتاً بالتقسيط .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
الكتاب والمؤلف	٣
لماذا هذا الكتاب ؟	٨
في مواجهة الثورة الشائنة	١٧
التضحية بالقيم = جريمة	٢٤
عن الانسان والتنمية	٣٥
(١) الثقافة في خدمة التنمية	٣٦
(٢) الثقافة : اطار التعاون	٥٨
(٣) الثقافة والتنظيم ، والتنمية	٦١
(٤) بين الثقافة والاستثمار	٧١
(٥) الثقافة ونزيف الكفاءات	٨٠

هذا الكتاب

لافتقار المكتبة الاسلامية الى مثل هذه الدراسات
زعم الكثيرون - وربما يكونون من المفكرين
الاسلاميين - بان الاسلام فقير الى «مناهج في
التنمية» بينما هو - كما سيلاحظ خلال دراستنا هذه
- أيسر المناهج وأسرعها انجازاً للتنمية من النظم
المادية، لأن الاسلام يثير جميع الدوافع الانسانية -
العاطفية والعقلية والروحية - ويوظفها في اشاعة
الرخاء، ويشجع للحياة الاجتماعية نظماً من شأنها ان
تيسر عملية النمو الاقتصادي، ويسن للحياة النفسية
مناهج تربوية من شأنها اذابة العقد النفسية والصفات
الرديلة التي تقف عقبة في طريق العمل الايجابي
البناء.